مسافرة مع الجراح

د. چيلان حمزة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

مسافرة مع الجراح

د. جيلان حمزة

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

مسافرة مع الجراح

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: **انتظار**
التقنية: **ألوان زيتية على توال**
المقاس: ٦٠ × ٧٠ سم
أحمد مرعى (١٩٣٦ - ١٩٩٨)

فنان تشكيلى، ولد فى السويس، وتخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٦٢ (قسم الفنون الزخرفية)، عمل بالمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ثم بالهيئة العامة للفنون، كما أشرف فنياً على العديد من المجلات (الآداب، أويزرفر، وتراث الإنسانية، والفكر المعاصر، ومجلة السينما، ومجلة المجلة، ومجلة الثقافة)، كما صمم عدداً كبيراً من أغلفة الكتب. وقام بتصميم بعض الإعلانات للأفلام السينمائية لمؤسسة السينما ولشركات الأفلام الأجنبية بالقاهرة. وقد استقال من العمل الحكومى عام ١٩٨٦ ليتفرغ للعمل الحر، وظل مخلصاً لفن التصوير.

محمود الهندى

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم **كل** راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك **لأهميتها** فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة **فكرة** القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان **مبارك** التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية **والاجتماعية** لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت **أن** توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع **ليشبع** نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع **الماضية** نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى **بثراء** إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة **الإنسانية**.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنوانًا وما يربو على الأربعين **مليون** نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً **وشباباً** وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير **سليم** حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة **الحضارة**» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة **لترفع** وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة **المصرية** زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

القسم الأول

كان جسدى ما زال نديا من أثر تلك المعركة التى كانت بينى وحيدة أمام اثنين كلاهما يريد خلاصا منى . . ساعتها أدركت بقسوة كم أنا محاصرة من أمامى ومن ورائى من داخلى وخارجى . . أحببت أن أفقد الوعى بإرادتى ، ليفعلا بى ما يريدان ! . . اقترب بعينيه يأمرنى . . لأ لأ إياك والهرب . . كانت عيناه قريبة أكثر مما أحتمل من عينى . . وببلاهة متسائلة همست : ماذا تريدان ؟ . . وأنا أروح بعيدا عنهما كنت أعى تلك النظرة الحاقدة التى رمانى بها قبل أن يبعد عينيه عن تقاسيم وجهى . . وأنا أطير إلى المواقع والتخوم هناك ، كنت أعى صدق الرغبة فى الخلاص منى . . كأنى لم أحن عليه . . لم أحتضنه . . لم أحشره لصيقا بزوحى . . أعد الليالى أنتظره ، وحين يطول وأشعر بإعياء ذلك الانتظار ، أرفض حتى اليأس ، فأصنع من نهارى وفى

وضح الشمس . . ليلا طويلا أعيش فيه معه . . حلما لا يجرؤ أحد على إيقاظى منه . . كان الجميع يخافون على . . فقد هدنى الحب . . الكل يعمل على راحتى ، وأنا ماضية فيما أنا فيه ، لم أرفض له مطلبا حتى تلك التى لم يوافق عليها أى من أسرتى سواء رجلا أو امرأة لأنى كنت أنزف دما قانيا وأصر على التمسك به وأنزف بلا لون وكل إصرار فى البقاء عليه . .

لست عاشقة فقط ، ولكنهم يلقبوننى بأم الصبر . . كان لدى القابلية المتوهجة أن أحتمل أكثر وأكثر إلى أن يكتفى . . إلى أن يرفضنى صابرة مستسلمة . . فيطلب بنفسه أن أصحو من حلمى الطويل ، لأكون أكثر واقعية ، وأشاركه حياة ما .

وهكذا دامت علاقاتنا ببعضنا فى كل الأحوال . . كنا معا حتى الليل . . فى الفجر . . تحت البرد غارقين فى المطر . . معا حتى يوم انقلبت بنا العربة وخرجت أنا وهو كأن لم يكن ! يومها وشوش لى بأن ملائكته حرستنا سويا . . يومها همس لى بصدق عظيم . . دعك من قطرات الدماء هذه ، ستتوقف . . ستتوقف بإرادتك ، لأن هذه الإرادة يوم أوجدها خالقها ، أراد أن يخلدها فرفعها إلى مرتبة الغريزة . أنت لن تتذكرى هذه اللحظات من عمر الخليقة الأول . . ولكن يمكنك سؤال أمك الأولى حواء . فكنت أنزف وأضحك . . وكان كل من حولى لا يفهمون ! فكيف نسينى ؟ وكأنه لم يبق فى قاع ذاكرته أى أثر لود كان يجب أن يجعله يتمهل حتى فى طريقة الخلاص منى ؟ ولكنى أعى تماما أنه يستنجد بآخر ليزيحنى من طريقه لينطلق حرا منى بعيدا عنى . . وأنا بكل إرادة الحب التى تموج معربدة بكل هوس للألم الخالد لم أكن أستطيع أن أقرر بحسم أننى أعيش فوق فوهة للألم فقط . لا . . لا . . لقد

كان أكثر ما يغالبنى الإحساس بالدهشة !؟ لأنى مشدوهة . . كنت أعى أن من يحاول أن يتنكر لى ويتخلص من كيانى ، والذى استعان بآخر ليعمق ألم فراقه . . لأنه كان حقا صادقا فى إرادة الخلاص منى . . مشدوهة أعى أنه لم يكن رجلا كما حلمت به الأشهر التى قد تزيد أو تقل عن تسعة ، إنما كانت أنثى بذل الطبيب مجهودا مضنيا لينتزعها خارجى . فقد كان لها تكوين ثقيل .

افترقنا . . انفصلنا . . وما زال يضغط بكل قواه على بطنى الضاج ، لينزل ما تبقى من أى أثر لعلاقة حميمة كانت . . صاح الطبيب بتعقل شديد : بنت . بنت

ورغم يقينى بهذا القدر من الخداع الذى عشته . . إلا أن فرح الدنيا يغزونى وأنا أعى حقيقة أنها أنثى ، أشراقة تكفى كونا كاملا جعلتنى أرتج وأنسى دهشتى ، وأوقن أنها لم تكن تريد التخلص منى ، إنما جاهدت حتى تجىء لتصادقنى . . وصلت حبيبتى .

يقسم الطبيب أنه ما رأى امرأة أكثر فرحا بابنتها منى ! الأطباء يجسدون الإحساس بتفوق الذكر على الأنثى لتعيد المرأة الكرة تحت إغراء النرز . . فقد تردد الطبيب وهو يهنىء زوجى ورغم أننى فى رقدتى والقضبان الحديدية ما زالت حول ركبتى فأنا أتفوق على أية ذبيحة معلقة فى دكان ما ، لأنى ذبيحة برأسها ! ورأسى لا يهدأ مطلقا أتسمع أقدام الطبيب . . أتسمع خطواته ، تسرع فجأة بعد أن حجبه عن مجال بصرى باب زجاجى واسع ، فأرهفت السمع . ينقل له . . ينقل له بالحرف الواحد بالانتفاضة الواحدة بالرعشة العابرة قدر سعادتى حين علمت أنها أنثى .

وينتهى التحالف بين الاثنين ، الطبيب وما بداخلى . وخسر المعركة طبيبى أو طبيب كل النساء . . وكسبتها أنا . .

من الدقيقة الأولى وضعوها على الذراع اليسرى ناحية قلبى . . قبالهم . . هى نفسها من لحم هذا القلب ، لا حاجة بى لوضعها ناحيته . . لأول مرة أعرف مرارة الجوع إلى شىء غير الطعام ! جوع إلى النوم ولم يكن محتاجا أن أستسلم له فأنا نائمة فعلا ، رغم شعورى بها ناحية قلبى . . وفجأة داهمنى خاطر يقلق ، ولكنه غريزى وفى نفس الوقت كما بدا لى فقد علمتنى رحلتى مع ابنتى وهى محتمية داخلى ، أن الرغبة أو الإرادة تسمو وترتفع حين تصبح غريزة فاحتويت خاطرى المقلق الغريزى بود كبير . ورشيقة اتكأت أحمل جسدى على مرفقى ثم على مرفق واحد ، وبالذراع الأخرى أعريها . . وتأكدت أنها أنثى . بعدها احتضننى النوم بأجنحته النورانية ، وغصت فيه إلى أبعد مدى يمكننى منه . لم يكن نوما كالذى أعرفه قبلها . كان نومى هياما وتحليقا أرى فيه معنى مختلفا لكل شىء الواقع والغد ، فأضمها إلى صدرى أشم رائحة الخلق الجديد ورائحة قدم الخليقة . .

فى طفولتى كنت دوما أسأل أمى : هل ولدت بشعر فى رأسى أم أننى كنت صلعاء ؟ وما هى أول كلمة نطقتها ؟ وعرفت أننى خبرت أصعب الكلمات فلقد نطقت كلمة النعناع أولا ولما سألتها هل كنت أبكى كباقى الأطفال فور ولادتى ؟ فكانت تشيح بيديها مستجيرة ، وهى تؤكد أنها لم تر طفلة ولا سمعت . . كانت أشد صراخا منى !

بين اليقظةوالنوم كنت أدير وجهى ناحيتها أتحسس بصدغى رأسها ، فألمس شعرها نديا ملتصقا به . . . وعبق عملية الخلق يملأ أنفى ، فأتأكد من صورتى التى كنت أستفسر عنها .

غاب عنى . . غاب عنا . . خالد غاب . . مددت أصابعى أتعرف على ساعتى من المائدة الصغيرة الموجودة بجوار سريرى . . فقد حفظت كل شىء فى حجرتى بالمستشفى . . عرفت مكان زر النور فأضأته . . كانت الساعة الخامسة فجرا فأين خالدى . . وقعت عينى على أمى جالسة على كرسى عريض وقد مالت برأسها نائمة . . همست أن أطفىء النور ، ولكنها استيقظت . . وألف ألف سؤال يتسابق فى رقاب بعض كأمواج البحر تترى مستفسرا قبل الآخر . . ها . . ها الكل ما زال خائفا على !

ــ كلها خالد بالبالوظة !

ــ لا أنها أنا . . حتى نبض قلبها .

ضحكت وهى تفهمنى أن خالد تعب من طول الانتظار وأنا نائمة ، فنصحته بالرجوع للبيت ليستريح . .

ــ كيف ياأمى ينام وله كل هذه الشمس ؟!

أكثر من شهر وخالد دائم الشكوى من ارهاق مفاجىء يسقط عليه هكذا مرة واحدة . يأخذه منى ومن أحاديثنا عما أحمل . اجهاد يستبيحه عنوة منى حتى ونحن نكتب هذا العدد الهائل من الأسماء التى كنا نحاول انتقاءها . . طارق أم عمر أم هاشم . . كنت أتهمه بالتدلل مدعية أنه يحاول منذ الآن أن يأخذ شخصية رب الأسرة الكبيرة الذى لا يحب كثرة الكلام . . فإن الأعباء

والمتطلبات تأخذ كل طاقاته . . فيضحك ويقول لى : ولو كان لدى بدل من الولد ثلاثة . . فأحب شيء إلى أذنى أن أسمع ثرثرتك ياغالية فأتركه يستلقى على فراشه وأنا أكمل كتابة أسمائى . . وكـان اختيارى دائـمًا أسماء لكبـار شعرائنا ، فأسمع ضحكة خالد عالية وهو يقـول : أحسن ما يـرضيك أن نسميه الأخطل الصغير ! إلا أنه فى ليلة من حوالى أسبوع وقع مغشيا عليه فى الحمام ، ولم أشعر به إلا بعد فترة طويلة . . ساعتها جريت أرش على وجهه زجاجة ماء مثلجة . . حتى أفاق وجلسنا على أرض الحمـام . . أنا أبكى جزعا وهو يربت على وجهى . . ملتاعة تماما . . فلأول مـرة منذ زواجنـا فترسنى خوف مبهم ، ودقات قلب متلاحقة حينا . . ثم ينفطر ذلك القلب يعاود دقاته المتلاحقة . . أرهفت أتسمع فلم أفهم دقاتى إلا أنها خوف مبهم خرس . . لم يخلصنى منه إلا حركة رافضة من ذلك المستكين لصيقا بروحى نخرجت منه آهـة كأن الليـل انشق عنها ، فـأوجد محمـود ابن عم زوجى أمامنا . . فمد يده يساعدنى على الوقوف وخلفنا سار خالد . . غاب خالد عنا متصورا أنى ما زلت نائمة . . لا لا يمكن أن أنام . هناك أشياء وردود فعل كثيرة لابد لى أن ألمسها أحسها . ثم بعد ذلك أنام . . غاب خالد . . فطلبت المرآة من أمى وأنا أحمد الله أنه لم يرنى قبل أن أصلح من شأنى . كان شعرى مشعثا والهالات السـوداء تحيط بعينى . . وخالـد يحب عينى . . أمـد يدى أسحب فرشاة لظلالى الطويلة فتناولنى أمى أدواتى السرية . . حقيبة يدى فيها حمرة للخدود وطـلاء أبيض أدارى به هـالات عينى . . ومع كلمـات أمى الصادقة : عدت زى العروسة المنورة . . تركت فراشى واتجهت إلى الحوض الصغير الموضوع فى آخر الحجرة . لقد قررت أن أغسل وجهى من كل لون

وضعته . . أريد أن يرانى خالدى شاحبة متعبة كحقيقتى تماما . . حتى أعمق فى نفسه الإحساس بذلك الجهد الذى قمت به لآتيه بهذه الهبة حتى يديه وفى مكانه . . وقبل أن أعى ضجرة أن الساعة قاربت الساعة إلا خمس ثوان . . كان خالد يدلف من باب الحجرة جميلا كحقيقته تماما ، بل لقد ازداد شيئا هاما . . ازداد معنى لا أستطيع أن أحدده بدقة . . يمكننى أن أدعى أنه ازداد مهابة . . فبحضوره امتلأ المكان . . بل صغرت الحجرة علينا نحن الأربعة . قلت المسافات ، بدا رأسه كأنه قريب من سطح الحجرة . . فكأن رابعتنا أمى أحست بى ، فوضعت الصغيرة على ذراعى وانسحبت وهى تتمتم بدعوات لم أميزها بوضوح واقترب خالد منى . . وقبل أن يأخذ وجهى بين راحتيه . . سقطت دمعة من عينيه شعرت بها ساخنة على جفن عينى لأنى كنت مسدلة النظرة . . ! لقد اكتفيت بأن رأيته وهو يدلف كالفهد من باب الحجرة . . وقررت بعد ذلك أن أسدل جفنى ليزداد وعيى وإحساسى بكل ما يقول أو يفعل . . ولكن دمعته هذه الساخنة أرغمتنى أن أرفع عينى فمرقت تلك الدمعة إلى داخل عينى ثم انسالت خارجها . لم أسأله . . كان هذا الذى جرى أكبر من التساؤلات والكلمات وأوسع من معان كثيرة مهما رحبت وقال هو :

ــ حمدا لله على سلامتك يامها

ــ لقد تأخرت أين أنت ؟

ــ دعك من سؤالى . أريد أن أرى مها الصغيرة . سأسميها مها

ــ لا . . لا . . أريد اسما أحلى

واختطفتها بكل رشاقة وحنان من جانبى ووضعتها بين كفيه العريضين . . فصاح :

ـ لا . . لا يامها أنا لا أعرف كيف أحملها

ـ ستتعلم

ثم نظر إلى بتعجب وقال :

ـ مالها خفيفة أنى لا أشعر بوزن لها . كنت تحملين هرم أجدادى وكنت أشفق عليك . ولكنها الآن خفيفة جدا .

ـ لا لا تقل هذا فهى أكثر من الوزن الطبيعى بحوالى رطل ونصف رطل . . ضحك . . ضحك كثيرا وهو يقول :

ـ هل وزنوها بالرطل أم بالكيلو . . لماذا لم يستشيرونى . . ابنتى توزن بميزان الذهب .

دخلت أمى على الجلبة التى يحدثها خالد واتجهت تأخذ طفلتى من بين يديه ، ولكنه تمسك بها وهو يقول :

ـ اسميها مها . . أسميها مها

ـ لأ . . لأ . . يابنى . . يقال إنه فال سيىء .

أمواج من الفرح والثقة تجتاحنى وهو مصمم أن يسميها باسمى أنا مازلت أغلى ما لديه . . أكاد أصيح بوالدتى أن تسميها كما أراد ولكن الخوف من الفأل السيىء يعذبنى هو الآخر . . ولكن حسم خالد كل هذه المشاعر المتضاربة داخلى وهو يقرر للممرضة التى طالت وقفتها صابرة تارة ومبتسمة مع الصبر تارة أخرى قال لها :

ـ اكتبيها سلوى . . اكتبيها لتكون . . . . . !

● ● ●

توزعت إرادتى . . وعجز عقلى عن أن يقرر ما ينوى أن يستجيب له كأن حائطا ينتصب أمامى مع كل خطوة أخطوها إلى الأمام أو إلى الوراء . . فتضيع إرادتى ! أترك سماعة الهاتف فجأة . أستأذن من المتحدث فجرس الباب يدق دقا متتاليا . . وجرس من حجرة زوجى يدق هو الآخر . . وأخيرا بلا إرادة توجهت إلى خالد . . كان يرقد كعادته محاطا بشحوب أصفر يخيم عليه من جبهته حتى أصبع قدمه الأكبر ، أحسست بنفسى روحا وجسدا أتحول فى وقفتى أمامه إلى شكل علامة استفهام كبيرة تقول ماذا تطلب ياحبيبى ؟ حتى عيناه مسهما الشحوب والصفرة فأومأ إلى ! وفهمت . . فهمت أنه فقط كان يريد أن يرانى ! مجرد أن يلقى على نظرة حالمة أو متعبة لا يهم فالمهم أن أبقى أمامه وفى نطاق بصره . .

انتزعت نفسى من أمامه وحثثت الخطى للباب دون كلام ، ولم أتبين القادم لأن حزمة الورد التى كان يرفعها بين يديه حجبت وجهه عنى . . وأخذت منه الهدية ، وبأدب شديد أغلقت الباب ، وأنا أدور عائدة . . كنت أعى بقسوة أن الهدايا والمرض كلاهما يتقبله الإنسان دون تفكير ، لأنه لا يملك خيارا حيالهما وأما فراش زوجى اختزل كيانى فى أمنية تصورت أنها صغيرة أمنيتى الصغيرة كانت لو يستطيع أن يستعير حمرة بعض الوردات للونه الشاحب . تركته وهو يشغل نفسه بقراءة اسم من أرسل الهدية . . وبقفزة واحدة كنت التقط سماعة الهاتف . . وبادرت محدثى أسأله :
ـ الساعة كام يامحمود ؟ .

كان ابن عم زوجى والساعة قد قاربت الحادية عشرة وكنا لتونا قد صحونا من نومنا المتقطع طوال الليل . . كان آخر موعد لتعاطى حقنه الكثيرة ،

الساعة الثالثة صباحا . وبعدها نمنا كمن ينامون على شاطىء بحر بين اليقظة والنوم تختلط الأحلام برؤى الواقع كالكابوس . . ولكنى لم أفقد الإحساس بوهن ذراعيه يحوطنى بهما كانا خفيفين ولكن لهما كل ثقل الإصرار على التمسك بى . . وتنفسه هادىء كطفل حديث الولادة . . رنين الهاتف وجرس الباب اعتدتهما فى الأيام الأخيرة . . فلقد داهمه المرض فجأة . . ويبدو أنه مرض عصرى أو لاأدرى إذا كان معروفا قبل عصرنا . . ولكنه لم يكتشف فأسموه مرض عصرنا نحن . . ومن ثم فلا تفسير واضح أو نهائى لهذا المرض .

فى البداية لم يصدق أنه مريض . . لم يكن يريد الاستسلام ، وكالشمعة التى توشك جذورها على النفاذ فتتوهج شعلتها . . كانت تتدفق فى عروقه حيوية مفاجئة . . وتشتعل رغبته فى كأنما يريد أن يؤكد لنفسه أنه قوى ، وأنه ما زال قادرا على أن يمارس العطاء كما كان بفعل . . واذا التف زواره حوله اتكأ على مرفقيه مستندا برأسه على ظهر السرير . وتدفق يتحدث ويتحدث . . ويسأل ويستسفر عن أحوال البلد . . والدنيا . . والأدوية التى منعوا استيرادها . . أو تداولها كأنها أسلحة سرية . .

وكثيرا ما كان يريد أن يستيقظ مبكرا كعادته . . يلبس على عجل . . وأجرى خلفه فى الحجرات أطعمه ما بيدى . . فكان يأخذ منى كل اللقمة بشفتيه . . ثم يقترب منى لأقضم أنا منها بدورى ، فكنت ألتقطها كلها بأسنانى . . فيجرى بدوره ورائى ويأخذها من فمى بأصابعه . . فأقول :

ــ إياك . . ستجرى ورائى . . ستجرى كثيرا . .

كنا نضحك كطفلين أضناهما العدو وراء ظلهما لأنه يعدو هو الآخر أمامها . . هكذا . . هكذا إلى أن تستيقظ منزعجة على صخبنا فيخطف قبلة

منها ويمر بشاربه على وجهها . . فيزداد بكاؤها . . بعدها يختفى من أمامنا . . لا ينتظر المصعد العتيق ، بل يندفع على الدرج فى قفزات . . وما زال عبق حضوره يطغى على المكان وعلى صوت سلوى . .

أنهيت مكالمتى . . وثانية مع أحد الأصدقاء وثالثة مع والدتى . . واندفعت إليه . . بعتاب نظر إلى ، ومد أصابعه ، فتعلقت بها واندسست بجواره . ما زال الدفء من أثر نومنا يملأ الفراش وأنا دوما باردة الأطراف فتحسست بقدمى قدميه أبغى الدفء . . أطلب ما تعودته بأمنية صغيرة أخرى . . ألا يخذلنى هذه المرة أيضا . . ولكن قدميه كانتا أشد برودة . . ملتاعة أنوى القيام من حضنه . . ولكنى ترددت ، خشيت عليه من نفسه . . فلم يكن ليحتمل المزيد . . وكان يتجسد فى عينيه أكثر من معنى وهو يرانى ألوذ بالزجاجة الساخنة . . أحتضنها بقدمى . . وتصنعت الجوع والعطش . . لأتركه وأعد إفطارنا . . للحظة تصورت أننى نجحت فى خداعه . . ووضعت قدمى على أرض الحجرة أنوى أن أسحب الأخرى من تحت الغطاء . . فوضع أصابعه على ساقى وهو يقول :
ــ أعدك . . غدا . . عندما أشفى فلن تكونى فى حاجة لما يدفئك . .

أسرعت فى خطاى . . فالباب كان يدق مرة أخرى ، وألقيت نظرة على مرآة الحمام أهذب شعرى فلقد تأخرنا . . جرس الباب للمرة العاشرة . . انهم أما أصدقاء أقارب سيجلسون معه . . يثرثرون ويبددون ملل الرقاد . . سيشاركونه طعامه محايلة لشهيته . . آه لو تخلى عن عناده ويسلس لى قياده مرة ويأكل ما أعده له . . أقف النهار بطوله . . وفى النهاية أتلقى كلمات الشكر والحمد كأنه يأكل بعينيه فقط . أما لسانه فقد نسى مذاق الطعام . . ينظر إلى

باسما ، ولما أضع له الطعام بالقوة يستبقيه بين شدقيه كطفل عنيد . . لا يبتلعه مهما حاولت . .

أفتح الباب . . تتابع الخطوات . . ويتجمعون فى الردهة وهم يسألون عليه . . ألملم قميصى . . أدارى به فتحة صدرى وأشير لهم بأنه فى حجرته . . وأبتسم . . حضورهم يتيح لى أن أتنفس بهدوء نسبى ويمكننى من أن أختفى فى الحجرة الصغيرة التى فى نهاية الممشى الطويل . . لكى أبكى وأبكى بمفردى . . أنفس عما فى نفسى . . أتخلص من قناع الشجاعة الزائفة والابتسامة المستعارةمن نفسى التى كانت حين كان خالد لى صحيحا معافا . . حين كان يملأ أرجاء دارى ويفيض بقهقهاته التى لا تنتهى . . هنا فى هذه الحجرة تسقط البسمة الكاذبة ففى أعماقى أن مرضه خطير ومحير . . فكنت طول اليوم ألبس مسوح الممثلين بل قناع البطلة الوحيدة . . لابد أن أواجهه بأن مرضه عرض زائل ومحنة طارئة ، لا أستطيع أن أتركه يواجه نفسه وحيدا . أكثر ما يخيفنى نظراته المتسائلة . . إصراره على معرفة رأى الأطباء ونتيجة التحاليل التى أرسلناها إلى أكثر من معمل . . والمعامل تئن هى الأخرى من عدم وجود الأجهزة المطلوبة ؟! أخاف من أن يرى فى عينى ما كنت أعيه فى عيون الأطباء . أنا نفسى لا أريد أن أصل إلى حد اليقين . . فإذا قلت له ما رأيته فى عقولهم ، كان على فى هذه الحالة أن أواجه قلقى وقلقه . . . عذابى وعذابه . . تعلمت دورى وأتقنته وصرت مرآته المسحورة ! وياله من ثمن كنت أدفعه لأصل معه إلى قناعة ما .

الساعة فى عمر الطب لها أبعاد سنوات ، ومن أدرانى أنا مع الأمل . . أنا

مع الساعة القادمة لعلها تأتى بتفسير جديد . . بعلاج جديد . . بأمل جديد . . أو حتى بمخرج جديد . . !

غبت عنه . . غبت عليه فصفق بيديه . . يتعمد أن لا يستخدم الجرس فى ندائى ومعه زوار . . وأنا لا أطيق أن يبذل أى جهد من أجلى . . فأنتصب أمامه أمر بين سيقان الحاضرين . . أفتح الدولاب . . آخذ ثيابى لأ رتديها . . ولم أنس أن ألمح عينيه . . أغمز له فيرد على بأخرى ويصيح :

ــ بسرعة . . بسرعة يامها الشاى . .

خطوات خفيفة وجلة خلفى فى الممر . . تقترب إلى الحجرة التى ألبس فيها . . أسارع بشد الثوب تحت خصرى . . أخبىء صدرى بالأزرار وبخطوة أواجه القادم . . كان محمود ابن عمه . . صافحنى مرة أخرى . . يده عميقة دافئة فى يدى . . فتشبثت لحظات بها . . هناك عرق ينبض ، وأستطيع أن أحدده جيدا . . بحركة لا شعورية تحسست بيدى الأخرى صدرى لأتأكد أن الأزرار مقفولة . . جلست على الكرسى بجوار الباب . . لا يهم . . دقات قلبى ما زالت تعلو ! . . فقال محمود :

ــ ما الذى هناك يامها ؟

ثم أخذ مكانه على يد الكرسى العريضة . . داهمنى شعور بأن هناك شيئا ما . . شيئا لا أدرى له تفسيرا ولكنه حتما له أهميته وخطورته . . قلت :

ــ ماذا عندك أنت ؟ أم أنك تقصد أنه لم ينم بالقدر الكافى . . نعم لم يتناول إفطاره بعد . . أم تقصد أن وزنه أقل من آخر مرة رأيته فيها ؟ وأخيرا قلت :

ــ أنا قلقة . . هناك شىء . . أخبرنى بكل شىء . .

فأطرق للحظة وقال كلاما كثيرا فهمت منه أنه لابد من سفر خالد للخارج للعلاج . . هناك الأمل . . هناك الإمكانيات . .
أن يشعر المرء أن الموقف خطير . . غير أن تأتى له هذه المعرفة من آخر . . معلومة محددة وقاطعة . . فكان الأمر مزلزلا . . انتفضت من مكانى واقفة ، وشعرت بجزئى الأسفل ثقيلا . . أكياس من الرمل فى ساقى ، ولكنى قاومت ووقفت أمامه . . كان اليقين يقينى السابق قد انتقل إليهم من أن علاجه ليس . . ولم أكمل . . الأمل أصبح من خارجنا . . لم تتفق معامل تحاليل القاهرة على شىء ، ولم يأخذ أى معمل تقرير معمل آخر مأخذ الجد .
ثم سحبنى محمود من ذراعى وهو يقول :
ـ جهزى الشاى حتى لا يشعر بغيبتنا . . ودعينى أمهد له الخبر ، وأعطيه الأمل مع السفر .
شد على يدى مرة أخرى . وقبل أن يغيب عن نظرى داخلا حجرة زوجى كان يقول ضاحكا :
الشاى . . الشاى يامدام . .

وحيدة أقف أمام براد الشاى . أمام النار أقف ولا أقف . . لا أحس . ولست أدرى كم امتد الوقت بى هناك . . وكم مرة انطفأت فيها شعلة النار من فوران الشاى . . كان دهرا بأكمله . . ولا أريد أن أدخل عليه . . . لابد لى من بعض الوقت حتى ألبس قناعى الباسم . . قناع البطلة الأولى . . وكفتنى الصغيرة مئونة كل ذلك . . صبرت على كثيرا فأطلقت لصوتها العنان . . أحشر فى فمها حلمة صدرى ، وقبل أن ترتوى تماما كنت أسحبه منها ، وأقفل الأزرار . . وأسلمها للمربية لتكمل باقى احتياجاتها .

دخلت عليه فتظاهر بأنه يبتلع الطعام . . فمددت أصابعى أتحسس شدقيه المنتفختين . . كطفل خائف ضحك وهو يبعد يدى عن وجهه . . للحظة قصيرة برق فى خاطرى كالهاجس رغبة كالجنون . . أن أمد ثديى حتى أمام كل هؤلاء ليمتصه . . ربما سرى فى دمه . . وأمده بالقوة . . ربما طهر دمه الذى حيرنا به . .

الراتب الشهرى . . رأيته لأول مرة يصل إلينا داخل مظروف أبيض أنيق من عمله . . تناولته بحزن الدنيا فى قلبى . . لم يخرج ليعود به فنتشاجر فى تقسيمه كما يحدث كل أول شهر . . جاء الراتب إلينا باردا بلا ضجيج . . فقد أصبحت وحدى المتصرفة فيه والباقى كله للتحاليل . . فكان يكفينا . ربا ه . . ليته يعود معافى ولن أطلب منه أن يقلل من سجائره أو استضافة أصدقائه . . يشفى . . يعود كما كان فقط ولتذهب كل طلباتى إلى الجحيم . . رباه يشفى ويدخن بباقى راتبه ولن أفتح فمى .

● ● ●

يومان فقط وتحلق إلى لندن . . يومان وأواجه مصيرى النهائى . . يبدو أن الفارق بين مصر ولندن أنهم هناك يقطعون بالرأى . . أما هنا فيخشون البت النهائى أو القاطع . هنا يتركون أملا كاذبا نعيش عليه زمنا . . ولكن لماذا أخشى الرأى القاطع ؟ هل لأنهم سيبددون ذلك الأمل ؟! وهل حقا اليأس أحد الراحتين ؟ أم أن مشاعرنا تجاه الموت والحياة غير مشاعرهم ؟ . . نحن نحتفل بالموت أكثر من احتفالنا بالحياة . . أجمع أشيائى وأشياءه . . أحس بلذة وأنا أرفض أن أطيع والدتى وأضع ثيابى فى حقيبة منفصلة عن حقيبته . .

أفرح وأنا أضع ملابسى فوق ملابسه قميصى الأحمر فوق قميصه الأزرق . . مناديلى مختلطة بمناديله فى حقيبة واحـدة فى ركن معين منهـا . . لا أريد أن أنفصل عنه . . كأن تجاور حاجياتنا امتداد لتجاور حياتنا . . واسترسال لتلك المتعة التى بت محرومة منها .

أمى حزينة من أجلى ومن أجل ميلة بخفى قالت مواسية :

ــ ربنا يرجعك بالسلامة ياابنى وتعود لبيتك وبنتك بـالسلامـة . فتمتم شاكرا لها . . ولكأنما كان يطارده احساس غامض . . . . شىء ما كان يدركه هو وحده . . . ربما شفافية خاصة أو وقوفا على أعتاب كشف ورؤ يا لا يملكها إلا من كانوا مثله يقفون عند تلك التخوم . . الموت والحياة البقاء والفنـاء والأبد . .

وعندما بدأنا الخروج للسفر . . لاحظته يجول بحدقتيه فى كل أنحـاء الـدار . . نظراتـه تقتـات من كـل ركن من الصـور . . من الجـدران من الستائر . . والأثاث . . ودنت لحظة خروجنا النهائى فرأيت عينيه تتسلل من خلف ظهرى وكتفى لتستقر مرة أخرى على جدراننا . . على ستـائرنـا . . تعمدت ألا أقتحم عليه هذا القدر من الحرية الحبيسة . . إلا أنى كنت أعى عينيه من فرط ما اقتات بهما كأنه سكر بعدها ترنحت عيناه فجأة ساقطة من على كل الأشياء . . هل كانت نظراته وداعا ؟ أم استبقاء لملامح وحرارة الدار فى تلك الغربة البعيدة التى لم نكن نعرف إلى متى ستطول . .

يضحك . . يضحك موظفو المطار وهم يرون هذا الحشد الذى كان فى وداعنا . . وأسمع أحدهم ــ وكان قريبا لنا ـ يقول :

ــ كان لابد أن نفتح صالة كبار الزوار يامدام مها . .

وأنقـل نظراتى بـين الحشد وخـالد الـذى يتكىء بجسده الـواهن عـلى ذراعى . . وشحوبه بدأ واضحا جسورا لكل منْ حولنا . . تتحرك عيناه فى مقلتيه بسرعة وبريق منطفىء . . بدت بذلته فضفاضة عليه كأنه استعارها من بـدين . . لو لاحـظت ذلك قبـل اليوم . . وكـان ينبغى على أن ألحظ ذلك . . لكنت ابتعت له أخرى . . كلمات الحب والإضحاك تحوطنا من كل جانب . . أنا لست وحيدة ما دام هذا الحشد معى وحـولنا . . أشعـر أنى لا أسير على الأرض وإنمـا تحملنا القلوب وتمسـح الأيدى عن وجهى عبـرة مترددة . . مرة تريد أن تعلن عن نفسها . . ومرة أداريها بنظارتى الشمسية الواسعة . . أن فيض تلك المشاعر التى أحاطتنا مهما كانت أسباب ودوافع كل منها . . إلا أنها بددت كل مشاعر الخوف والقلق وتوقع المجهول . .

وقبل أن يوصد علينا باب الطائرة كان أحدهم يرفع ابنتى بين أيديه لأراها ولمرة أخيرة . . كتلة من اللحم الشفاف لا . . . والغالب أنها تصرخ بكل صوتها الطفولى الرفيع . . فأدللها بصـوت مرتفـع وكأنها تسمعنى اسم الله عليكى ياحلوة سأعود إليك مع بابا بكل لعب لندن ، ويضحك خالد وهو يقول :

ــ كفى مها . . إنها لا تسمعك . .

وقبل أن تبدأ الطائرة فى الدوران . . والذى كـان طويـلا مملا . . كـل ما فعله القائد أنه استدار بنا ليقف عشر دقائق كاملة قبل أن يقلع . . لو وقف هذه الدقائق لأرى المودعين . . لأملأ عيناى من ابنتى . . ولكنه أدار لهم ظهر الطائرة ووقف هكذا كالإوزة ! يعلو محـرك الطائـرة . . حتى بت لا أسمع ما يهمس به زوجى فى أذنى . . وقبل أن أستسلم لما يجرى . . تذكرت شيئا

عزيزا أحتفظ به . . أعطته لى مربية ابنتى . . حجاب تميمة لففتها فى قماش أبيض . . قطعة من منديل خالد . . وتحسست صدرى لأتأكد من أن الحجاب فى مكانه . . دفء يسرى بينهما . . أشعر بالحنين للفم الصغير لسلوى فينسال منها اللبن فى قطرات دافئة ليبلل ملابسى الداخلية . . بهدوء حشوت صدرى بمناديل الورق الخفيفة قبل أن يتسرب اللبن إلى فستانى الخارجى . . غصة فى حلقى وأنفاس قلبى تهزنى بعنف . . لقد حذرتنى المربية أن يمس التميمة ماء وإلا فسد مفعولها . . آه ليتنى غلفتها بقطعة من البلاستيك من تلك الأكياس الموجودة فى المطبخ . . ولما وجدتها قد ضاعت بللا فتحت حقيبة يدى الحمراء . . كانت والدتى قد أعطتنى ونحن فى المطار سورة « يس » على وريقات صغيرة . . واستعادت أذنى صدى صوتها المرتعش وهى تقول :

ـ إذا أعياك شىء فاقرئى هذه السورة سبع مرات . . التقطتها بسرعة وفتحتها أقرؤها . . الطائرة فى الجو عشر دقائق . . الهدوء يجتاح كيانى ونفسى بعد أن راح خالد فى إغفاءة عميقة ، وقد تدحرج رأسه على كتفى . . كان غزير الشعر . . تتجاور الشعرة البيضاء مع الأخرى التى فى سواد الليل . وكم كنت أهوى أن أجمع الليل والنهار معا . حرصت على ألا آتى بأية حركة . . حتى أنفاسى اللاهثة سيطرت عليها . . . سعيدة بنومته العميقة . . وتشاغلت عن أفكارى بالنظر من شباك الطائرة . . ما زلنا فى دورة بعيدة فوق أجواء الوطن . . بدا علونا شاهقا . . البيوت كلعب الأطفال . . والخضرة التى كانت تبدو لى واسعة ممتدة بلا نهاية . . أراها هنا انزوت خائفة تخنقها صفرة الرمال الشاسعة ونيلنا الحانى يجاهد وسطها وفى

قلبها ليحميها . . بدا لى مشهد الأهرامات وقلعة محمد على وكوبرى الجامعة وتمثال نهضة مصر فى إطار واحد . . موقعا ومعنى ومغزى يحفر فى القلب كل تطلعات الغد وأحلامه للوطن . . ولست أدرى لم تطلعت إلى خالد ؟ ألأنه كان لى داخل هذه الطائرة الغريبة والركاب الغرباء حولى . . أنه وطنى . . انتمائى وملاذى ودنياى . . هذا المريض الراقد بجوارى ربما كنت ساعتها وطنه وملاذه ! لا أحد له هنا أو فى الغربة إلا الله وأنا . .

وانتبهنا على صوت ميكروفون الطائرة يردد رسالة لنا وسمعت أجمل كلمات سمعتها . . البرقية من وطنى تعلن أنهم جميعا يتمنون لخالد رحلة موفقة . .

والتفت الحانيات . . مضيفات الطائرة هن الأخريات والحلوى فى أيديهن . . يتحدثن إلى خالد . . يتمنين له الشفاء . . والعودة . . والحب . . الحب أجمل ما يمكن أن يمنح لإنسان .

فى مطار لندن . . ضايقتنى كثرة المصافحة وهى تشد على يديه بقوة . ووددت لو أقدم أصابعى أنا بدلا منه ، لأنه كان وهو يعطى يده متجاوبا يخلع قلبه كذلك من مكانه ليضعه فى كف من يصافحه . . فأشفق عليه من عمق انفعاله واهتزازه . . ضائعا وسط بذلته الفضفاضة . .

لم يكن خالد بالشخصية الكبيرة التى يهتم بها أعضاء سفارة كاملة بهذا الشكل ، ولكنى لم أعلق . . شغلنى فرح الانتهاء منهم حين أخذتنا سيارة فارهة فى شوارع لندن الضبابية والمغسولة بالمطر .

وعدت أسائل نفسى هل كان الخوف . . الخوف من الغد . . فإذا كنت أنا أخشى مجىء الغد . فهل تراهم وهم يستقبلوننا عن بكرة أبيهم يعـون خوف الغد . جاءوا يشدون على أيدينا . . يسألوننا لعلهم يلمسون من بين نبض أيدينا ما يقول لهم أن الغد واعد . .

ومع يأسهم منا . . أخذوه . . أبعـدوه . . فرقـوا بين ثيـابى وثيابـه . . أرقدوه على سرير وحيدا . . لن أندس إلى جواره أبحث حالمة بالدفء . . أخذوه إلى تلك الحجرة البيضاء . . وبدلا من أصابعى التى كانت تمسك به من ذراعه ، وضعوا أنانيب حمراء وبيضاء وعلقوا زجاجاتهم المقلوبة والمعدولة المليئة بالمحاليل . . والدم . . هنا . . لا مكان لى . . حتى وقفتى الضائعة لا محـل لها هنـا . . وسحبنى الطبيب الانجليـزى بحسم . . وخرجت . . ارتميت على أول كرسى ، وأنا أتوقع أن يجلس على ذراع الكرسى كما فعل محمود هناك فى مصر . . وحدث ما توقعت . . وبدأ يكلمنى . . موضحا أن خالد سيعيش هكذا لفترة طويلة راقدا والزجاجات تقطر داخل شرايينه . . وسألته :

ــ أين كلمة العلم ؟ . . الطب . . الكلمة الحاسمة والعلاج الناجح ؟

ــ دم زوجك يأكل بعضه بعضا . . وعلاجه أن ندخل جنودا نقية من الدم إلى ساحة القتال الناشبة هناك فى الداخل . . هذا هو الرأى والحل معا . . ولابد أن تكون الأمور واضحة أمامك تماما .

جئست هنا أبحث عن اليقين . . وها أنا أغتصب اليقين من بين شفتى الطبيب الانجليزى لأملأ به صدرى . . واندفعت بكل فرحى وبكل مخاوفى

السابقة . . بكل توجساتى وقلقى لأقبله . . لأزف إليه بشرى قرب الشفاء والعودة للوطن . . لسلوى .

وبالبرود القاطع كـالسكين أشـارت إلى الممرضـة ألا أهزه خشيـة الأبر المغروسة فى ذراعه . وبأن الانفعالات ضارة به . فأدور على أعقابى أبحث عن قلم . . سأسطر خطابا لمحمود وآخر لوالدتى سأقول فيه أنه سيشفى . . وأننا سنعود بعد الزجاجة العاشرة أو الزجاجة العشرين . . أو على أكثر تقدير بعد الزجاجة الثلاثين . . أو الزجاجة الـ . .

وحيدة فى الفندق أعد الساعات إلى الفجر لأذهب إليه . . ولا أجد بى حاجة لارتداء قناع مضحك الملل الذى مللته . . فالشفاء آت لا ريب فيه . وأتحسس ذلك القميص الذى سرقته أثناء فصل حاجياته عن حاجياتى . . أتلمسه وأشمه . . لأحس أنى معه قبل أن أصل إليه !

وهناك قرب سريره اكتفيت بأن أقبله فى جبهته وبهدوء كامل حتى لا أحرك الإبر فى ذراعه . . وأجلس مقهورة بعيدة عنه ، ويأتينى صوته الواهن :

ــ أوحشتينى . . الساعات تمر بطيئة فى هذا البلد !؟

ــ أوحشتنى أنت أكثر . . والدقائق ساعات !؟

ويشير إلى أن أقترب وأن أضع أذنى على فمه . . فأقول ضاحكة :

ــ لا تخش شيئا . . الممرضة لا تعرف لغتنا . .

ولكنه أصر على ذلك ، فاقتربت منه :

ــ أرجوك ياما أن تنزلى إلى السوق واشترى ما تشتهين .

ــ أنا لا أشتهى شيئا . . أريدك أنت .

ـ أرجوك . . النساء ينتهزن فرصة وجودهن هنا ويشترين ما يردن .
ـ انى أتمناك وحدك . .
فيعقد ما بين حاجبيه ضائقا :
ـ لا تؤلميني . . . رفضك يتعسنى

رغم أنى لست وحيدة فى شوارع لندن العريضة . . معى زوجة السفير وزوجة الوزير المفوض . . وزوجة الملحق الثقافى وآخرون وآخرون !! . . كلهم يوهموننى أنهم يدفئون بالأمان أيامى الضبابية هنا . . ! ويمعنون فى أدوارهم ليكبر وهمى ! ولكن تحتلى أصابع خالد الشاحبة مخيلتى ، وأتذكر يوم وصولنا وكل تلك المصافحات التى كانت . أحاول أن أطرد الصورة من داخلى . . ولكنه كان المحال ، فنفس الأيدى فى يدى فارغة إلا من الخوف . . ولكم كنت قادرة على أن أمتص هذا المعنى حتى الدوار . . وكأى امرأة شابة حين هرب منى الأمان رفعت عينى إلى السماء كفعل ثان ولم ابدأ به !!! وسمائى هنا رمادية . . وعيون النساء والرجال فى هذه البلاد رمادية هى الأخرى . . أسرف فى التياعى وأنا أكتشف أن كل من معى عيونهم أصبحت رمادية كذلك . كيف ؟ ومتى ؟ فلنا دوما عيون سوداء لها عمق الليل وصدقه ؟ !!

وأردت أن أضع حدا . فنحن فى بلد اليقين جئت ساعية له فسألت ووصلتنى الحقيقة كالصاعقة . . ؟؟ ووجدت نفسى معهم فى قلب قلب خوفهم ؟ فالأنباء من وطنى يتكلمون فيها عن فضيحة شرف !؟ يحاولون فض بكارة قديستنا عنوة فى الطريق العام . . أمام العالم يحاولون هذا الفعل فى

وضح النهار وبالدقة مع أول خيوط فجر كان . . ! ؟ والقديسة كشأنها دائما تناضل مستميتة فقد علمت الخليقة كلها يوما . . ما الشرف والحضارة والإيمان . . أنت يامصر . . يامصرنا . . ياأبقى القديسات تئنين . . . تزأرين . . ولكنك لن تصرخى . . فلم تفعليها مرة واحدة منذ عرفت الدنيا الخليقة أو عرفت الخليقة الدنيا يامصر كنت منذ وجدت لك رأس يجلله بياض ناصع . . وقالوا عنك أن لك كل العقل وكل الفكر وجلال القديسة فكيف تصرخين . . فأنت لم ترلدى نطفة ثم علقة . . أنت ولدت روحا يخف لاحتضان الرسالات السماوية وأصحابها بكل الحب . . بكل التسامح والعطاء . .

● ● ●

أقف أمام فراش خالد . . يأكلنى الإحساس بالادعاء . . إحساس دخيل من لحظة انتهكنى لأبعد مدى . . . وكمن فى أحشائى . . يلوى أعضائى ويدعى أنه حمل . . بالبشاعة طفل . . لأنه . . لأنه طفل الحسومات المحرم .

والإحساس بالادعاء يملؤ نى كأنى لست أنا ! ولم أكن فى يوم ما أزعم أننا أصل الفكر ، وأننا أمل الخليقة . . بل وأننا من بلاد القديسة التى لا تخطىء . فكيف جرأوا على اغتصابها . . ؟ أما كان لها أن تفطن لهذا !؟

مسكينة ياأبقى القديسات فإن خطيئتك لا تغتفر لأنها ليست لك وحدك . .

أقف أمام فراش خالد أتمنى خلاصا . . أين الخلاص ؟؟ والعيون من حولى رمادية ! ترى هل فقدت عينى هى الأخرى يقينها الداكن . . خسرت سمرة صدقها ؟! اقتربت من خالد . . اقتربت حتى جلست على فراشه وملت بوجهى ناحيته أنوى سؤاله عن لون عينى ! فتلاقت أعيننا . . وأيقنت أنها داكنة . . فى هذه اللحظة ومع تلك النظرة المتبادلة بيننا . . تمالكت أمر نفسى تماما وعدت بكلياتى أعى رقدة خالد . . أتذكر تحذيرات الطبيب والممرضة لى من أن يمسه أى انفعال . . فقلت بسرعة محاولة أن أبدو طبيعية وابتلعت كل ما عرفت لى وحدى :

ــ لقد اكتفيت بعمل جولة استطلاعية فى المحال فقط . . و . . وانى أعد بشراء كل ما تتمناه لى و . . و . . و . .

نظر إلى هنيهة . . ولم يدركه اليأس من محاولاتى للهروب . . عاد لعناده فجأة حادا حتى كدت أخشى عليه من الانفعالات . .

ــ أنا أريد أن أراك فى ثوب زفافنا . . هى رغبة يامها تتملكنى أن أراك عروسا مرة أخرى . . رغم واقعنا . . رغم مرضى . .

هزتنى كلماته حتى أعماقى . . وكدت أسقط من هول عبارته رغم واقعنا يامها فأى الواقعين يقصد ؟ واقع مرضه أم واقع الدنيا ؟ أم الدنيا ؟ تراه عرف ؟ . . غراب نعق فى قلبه بما أحمل بين جوانحى ؟ وصله الخوف . . ولكنه فجأة قطع على درب الاسترسال وهو يقول :

ــ اشترى الثوب ولا ترهقينى أكثر من ذلك . .

ضحكت له من كل عقلى لأنى تأكدت أنه باصراره هذا يعنى واقع مرضه فقط بعيدا عن واقع أمته .

ـ سأشترى الثوب ياحبيبى ولكن لا داعى لأن يكون أبيض . . سأختاره بأى لون آخر . . أيرضيك ذلك ؟

ـ يرضينى كل شىء . . فأنت ياجميلة الجميلات كل الألوان تتزين بك . .

● ● ●

وحيدة فى شوارع لندن العريضة . . وحيدة حتى من وهم الأمان . . لقد عرفت فلا داعى لأن يصحبونى . . هم يصحبون جراحهم . . لا . . لا . . بل تسوقهم جراحهم فيدورون فى بهو السفارة الواسع كالأبقار المعصوبة تنخسهم موجات الأثير بما تنفث . . وتلوى أعناقهم وكالات الأنباء بما تعلن على الملأ وفى وضح النهار . . وبمرارة فسرت كل أسباب اهتمامهم عن بكرة أبيهم أسباب خوفهم المبهم وهم يستقبلوننا يوم المطار . . ولكنا كنا أنا وخالد مشغولين فى همنا . . .

وكان لابد أن أشترى الثوب . . وأن ألف وأدور بثوبى أمامه . كان طويلا وأنيقا وبلون الشفق . . وخالد يرجو الممرضة أن ترفع الإبر عن ذراعيه ليقف بجوارى ونرى أنفسنا فى المرآة القصيرة الموجودة بالحجرة . فقالت بانجليزيتها الواضحة :

ـ أنتم الشرقيون غريبو الأطوار حقا . .

وتركتنا بعد أن أغلقت الباب خلفها . . ولأول مرة منذ أن وصلنا أتمسك بصدره . . . أسند رأسى فى حضن قلبه . . أنفى قرب أبطه ! أبحث عن عبق أعرفه لأنه أختلط بدمى يوما ما ، فقد أطلقت الممرضة لأول مرة سراحه

من كل القضبان والأطواق والأحبال التى تقيد ذراعيه وتجعله مصلوبا على فراشه فاتحا ذراعيه عن آخرهما ، ورأسه مائل ناحية اليمين ، ينسدل شعره الأسود والأبيض على جبهته ! فيتعانق الليل والنهار معا . . !! ففى هذه اللحظات كان يجمع كالبرق خاطفا كل الجمال وكل الآلام ! ويظل هو يتألم على غرار الأنبياء ! لحظات مجنونة تتفجر داخلى أنوى أن أعرى صدره بل جسده كله لأنى كنت على يقين من أننى سأرى بعين رأسى المسامير دقت فى أنحاء جسده !! مصلوبا لا يفعل شيئا إلا أن يتابعنى بعينيه الداكنتين . . فلا أملك . . بل لا أملك إلا أن أحبه أكثر .

كطفل فرح بيديه . . فقد تعلم كيف يستخدمهما من برهة فقط فأخذ يمر بهما على شعرى الطويل ، محاولا أن يلملم ظلالى كلها فى قبضته ليرفع وجهى الذى طال بقاؤه على صدره . . . . وأنا درجة التنبه حادة يقظة داخلى كالوتر المشدود . . فلم أتوان . . . وما أن تماست شفتانا حتى دب الخوف فى قلبى !!! ليست هذه قبلته التى تعرفها شفتاى ودمائى . . . هذه القبلة فيها طعم الوهن ، ورغم ذلك يعطى ما عنده أقوى الوهن . . . فيها رائحة المحاليل الكيميائية . . . قبلته لها طعم برودة الدم المنقول !

وأنبثق الخوف من أعماقى كالشلال يغرقنى . . قبلة واهنة وصادقة . . وأنفلت من بين ذراعيه كانسلالة النسمة من نسيج حريرى . . . رجفة تملك شفتى . . . راعتنى خفة يديه وضعف ذراعيه . . كم كنت أريده مستميتا فى الإمساك بى كما كان دائما . . الرعب يملكنى . . . . هذا هو اليقين الذى كنت أهرب منه . . الزجاجات وما بها أسطورة . . . لندن أسطورة . . . العلم

خرافة . . . . العلم أعجز عن أن ينقذ حياته . . . . الكل باطل كل شيء باطل . . . كدت أصيح . . كدت ألطم الخدود وأشق الثوب . . .

ودخلت الممرضة فى موعدها المحسوب !!! وبيننا سقط جسده الواهن على السرير . . . . تركته والتفتت إلى وبقوة سحبتنى رغما عنى إلى الخارج . . .

تلفت خلفى ملتاعة . . . . كان شاحبا ومسجى على السرير . . . . . ينسكب عليه ضوء شفق من زجاج النافذة الوحيدة . . . كان وحيدا وحدة مطلقة . . . وغاب كل شيء عن ناظرى . . .

● ● ●

لو سألوه ما اختار مؤخرة الطائرة أو بطنها ليختبيء فى صندوق بعيدا عنى ويترك الكرسى بجوارى خاويا وكلمات الممرضة الانجليزية تدق فى عقلى ، تضغط على عنقى بدقات من ناقوس كنيسة عتيقة انفلتت أحبالها فجأة أسمعها تقول :

ـ أنتم الشرقيون تحتاجون إلى ثوب أسود لمثل هذه المناسبات وأنا آسفة أن ليس لى ما أعيره لك الآن . . . .

بنفس فستانى الذى تمنى أن يراه على آخر ساعاته . . . بقيت به يوما وليلة وقالوا أنهم يجهزون الجسد لاصطحبه أو يصطحبنى لا أدرى . . . إلى وطنى . .

بلا طعام ولا ماء كنبتة الصبار أقف وحيدة وقطعة القطن المحشورة بين فخذى ، تبللنى وتزيد من ارتعاشة جسدى ، فأحس لسعة البرد حتى فقرات

ظهرى . . . ثم جلست مستسلمة للمصير . . . . ضاع منى الطريق . . . ضاعت منى يس . . . . فتشت عنها فى الحقيبة . . فى الأوراق . . . وحتى فى ذاكـرتى . . . تبخرت . . لم أفلح مـرة واحدة أن أقـول أكثر من الكلمـة الأولى . . . . وأسترجع بإرادتى صوت والدتى لعله يعيننى على التذكر وهى تقول :

ــ إن أعياك واستعصى عليك أمر فعليك بـ يس . . أين هى . . . . هى نفسها استعصت على فلم أجدها . . . ورحت فى إغفاءة من كثرة المهدئات التى أطعمونى وسقونى إياها فى المستشفى . . . فى السفارة . . . فى الطريق وقبل المطار . . . تنبهت على يد المضيفة تربت على كتفى وتقول لى بهمس :

ــ مدام . . . . يامدام . . وصلنا مصر ! !

وعدت أعى كل ما هربت منه بإغفاءتى القصيرة . . أعى كلمة وصلت وبالبلاهـة الكلمة . . . أى حقيقتى دون يس سقط عـلى الوعى بـأننى بلا زوج . . . أرملة . . . . كلمـة . . . . بدت لى غـريبة . . كنت أسمعهـا وأرددها دون أن أعى ما بها من مشاعـر الفقد والضيـاع والوحشـة . . . . عاصفة تقتلع القلب والوجود وتزلزل الكيان كالبركان . . . بـدأ إحساس الأرملة ينبت كأشواك العـاجول فى جسـدى كله . . . . منذ اللحـظة التى ألبستنى فيها الممرضة الانجليزية بكلماتها وتصرفاتها المحسوبة بدقة ! منـذ ألبستنى دبلة خالد قبل دبلتى . . . من ملمس الدبلتين معا انتشر كالنمـل الـزاحف أحسـاس بـالفقـد والترمـل . . . فصحـرائى كـانت لهـا رمـال ساقية . . . . وحر لافح . . . . وزمهرير قاس ينفذ حتى العظام . . . . وفوق هذا فإن صحرائى تبرأ منها القمر . . . ! !

بلا إرادة نظرت من نافذة الطائرة . . . لم أجد أحدا فى انتظارى . . . دفعنى بعض الركاب . . . . فنزلت على غير هدى . . . خلسة أدرت رأسى فلمحت الصندوق المعدنى . . . تمهلت فى خطوى فدفعنى الركاب إلى الامام . . . مرة ثانية أدرت رأسى خلسة . . . كانوا ينتظرون عربة بيضاء . . . الإسعاف . . . . والإسعاف كلمة تأتى متأخرة دوما .

أغير طريقى وأسير وراءه . . كانت العربة مسرعة ولكنى كنت أحفظ طريقها . . . عرفته على البعد . . . فى مكان قصى بعيدا عن أرض المطار . . .

واحد فقط كان ينتظرنى . . . محمود ابن عم زوجى . . . وحده فقط كان هناك . . . لحتى . . . أغرورقت عيناه بالدموع للحظة . . . . ما كان ينتظرنى من مهام لم يترك للحزن مكانا . . . كنت قلقة . . . ولم أكن أعرف ما الذى سيتم . . . لاحظته لتوه ينتهى من بعض الأوراق . . . ثم واجهنى قائلا :

ــ اسف يامها . . . كانت معنا والدتك والعديد من الأقارب ولكنا أشفقنا عليهم من التعب . . . . و . . . .

ولم أسمع باقى كلماته . . . لاحظت أنه لم يعزنى . . . !؟ عجبت كيف أنكر هكذا بكل الوعى والأصول وواجب العزاء ؟ عدت أسمعه

وأنت تعلمين أن وصولكما كان قبل الفجر بساعة . . . ويالللبلاهة . . . أنه ما زال يخاطبنى بصيغة الاثنين . . . وصولكما . . . وسألت عن

سلوى . . . وعن أمى والمربية . . . واندفعت أسأل عن كل أقاربى كلهم . . . . كلهم من فى درجة الزيارات الأسبوعية ومن فى درجة الزيارات السنوية . . . ومن لا نراهم إلا فى المناسبات القدرية . . ! صدى صوتى ملهوفا فى أذنى يسأل عن الجميع فردا فردا كأنى لم أسافر مع خالد فقط . . . . إنما أنا رحلت معه حتى داخل صندوقه المعدنى ، ثم بعد ذلك ردت إلى الروح ، فانفلت هاربة منه وتركته وحيدا . . . انفلت هاربة إلى الحياة مرة أخرى . فما أن رأيت محمود حتى طفقت أسأله بلا توقف عن بنات العم . وبنات الخالة وبنات بنات الخالة . عن الجيران والأحباب والأعداء !

ـ كلهم بخير . . . تمالكى نفسك يا مها حتى انتهى من الأوراق لنخرج به من هنا .

وأد الصرخة فى قلبى . . . وأحسست بها تخرج فى شكل دفقات من الدم اللزج بين ساقى ، فاستسلمت ولأول مرة . . . بكل ما قدر على . . . وتلمست مكانا على أريكة قائمة فى البهو الفسيح البارد إلى أن يأتى محمود .

احساس بالسكينة يتسرب مترددا إلى قلبى . . يلتقطه وعيى . . ويعرف منبعه . . . كان لأنى ولأول مرة أجلس مرة أخرى تحت سماء وطنى . . وسمائى حانية . . . لأنها تعرفنى من قديم القديم . . . منذ كان لى عقل مفتوح فى أعلى رأسى لم يلتئم بعد . . . وطنى بسمائه يعرف عنقى منذ أن كان لينا لا عود له ، يستبقى اللبن بين طياته الذى يندفع من فمى فى اثر رضاعتى . . ها . . . ها . . . كانت لى معدة تختار منذ كنت رضيعة . . . كانت لى إرادة . . . !

وكبرت . . . وعرف وطنى فى عنق الغادة . . . كنت أشرئب به وأنظر إلى سمائى حائرة !! أعى الحمرة الساخنة . انتقلت منها إلى وجنتى ، فأسمع من يقول لى : خذى شهيقا عميقا تزول الحمرة من وجهك . . الى أن انحسرت العيون عنى حين أصبحت لخالد فقط . ومـا بقى منها كـان عابـرا يتلمس صاحبه آثار ذكرى للحظة كانت ثم ضاعت .

وطنى إنك اليوم تعرف عنقى يئن أنينا له طعم . . . فهناك أنين الاستغاثة وفى عـروقنا . . . ومن طبيعـة دمائنـا نعرف أنـين الاستجـارة . . . . ان أجار . . . وأن أجير . . . أما ذلك الانين الذى أسمعه فهو دخيل على لا أريد أن يكون منى . . . ويقولون فى اليأس أحد الراحتين ؟ كفانى بطوق المشنقة يضيق حول عنقى الجميل . . . وأنت ياوطنى أحببت عنقى . فمازال جميلا كقاعدة تمثال لأشهر نحات . ولكن الطوق يضيق وأنا تجردت من كل فعل حتى من فعل الاستسلام ؟ !!! أنا منتظرة عيونى زجاجية ويأسى مطلق !!

وهم ماذا يفعلون ؟ يغرقون جرحى بالمطهرات الحمراء والصفراء !! آه منك موطنا . . فالوطن وخالد كلاهما يجعلانى أتمنى مجىء غدى ليكون فيه للهم نهاية . . . وأتمنى ألا يأتى غدى !! ؟ فغدى هو اضافة يوم آخر لنكستى وانكسارى مادام الغد لم يعدنى بانطلاقة إلى صدر عرفته وحفظت كل جزء فيه . صدر ينبت الظل غزيرا فيه . فأتمرغ بوجهى عليه أدفىء البارد دوما فى ليالى الشتاء وفى ليالى الصيف . . .

أعب من الحب وبديهيا أن ازداد حبا له لأنه . . . لأنه . . . . وطنى .

لست أدرى لم ذكرتنى جلستى على تلك الأريكة القاتكة بالأريكة التى كنت

أجلس عليها أمام باب المدرسة حيث يجلس عم فؤاد البواب . . . أرفض أن أقف فى طابور الصباح . . . أصمم على جلستى بجواره حتى يتلاشى صوت آخر قدم من أذنى . . . وبقفزة واحدة انـدفع من البـاب إلى سلم الناظـرة الرخامى الممنوع على التلميذات . . . أختار توقيتا بإرادتى وطريقتى لدخول المدرسة كل صباح . . وترانى المشرفة الاجتماعية كل صباح . . . فتشدنى من ضفيرتى فتنحل شريطتى البيضاء . . تلوى ظلالى فى يدها فـأحس الألم فى مؤخـرة رأسى يتركـز أعلى عنقى . . . وأنـا ولدت بعنق حسـاس فـأبتلع اضطرابى وأصنع من أصابع يدى الطفولية رقم ٨٨ وأنا أردد لها أن القانون المصرى رقم ٨٨ يمنع ضرب البنات .

تتركنى انفلت منها وهى تضحك ، فأشعر أنى مالكة لإرادة البداية والنهاية اليومية . . . اختارها . . . أنتقيها كأنها عطر تختاره امرأة من دكان من دكاكين الشـاطـر حسن . . . تقـول فيهـا للشىء كن فيكـون . . . . الإرادة للأطفال !! ؟

وكبرت . . . كبرت حتى عرفت الموت غـريبة . . . عنـدما واجهتـه فى البعيد . . . تمددت المسافات كما تمدد الزمن الذى كان يفصلنى عن الأمس القريب . . . فشخت فى غربتى القصيرة . . . كأن كـل ما مـر بى استغرق سنوات . . . تمدد الزمن وتراكمت اللحظات القصيرة الحـادة المنغرسـة فى اللحم لتصبح دهرا بأكمله . . . وبالرغم من ذلك الذى أحسست ، كنت أتصرف آليا وواعية بكل شىء . . . امتصصت كل شىء . . . بل ذاب فى كـل حـدث . . أبحث عن جـواز سفـرى وجـواز سفـره . . أدقق فى صورته . . . كان يجب أن يبتسم أكثر . . . قطرات من دواء ما وقعت على

طرف الجواز . . لم تزلها محاولاتى . . . كانت كالصبغة . . لحظات أخرى أجدنى أقف من كل ما حدث لى على مسافة . . كان كل ما وقع لى كان معلقا خارج وعيى قالوا لى أن الروح تقود مشتاقة إلى أحبائها . . . تراها هائمة الآن حول سريره هناك . . تطل من النافذة تبحث عنى . . أتشكو غدرى وهجرانى وسفرى بدونها ووجدت محمود أمامى فجأة . . . دون وعى قلت له متسائلة :

ــ أيشكو هجرانى ؟!

بدا أنه لم يفهمنى . ولكنه أكمل جادا وبصوت مرتفع :

ــ انه لا يشكو هجرانك يامها . . انه يشفق علينا من نكستين !!

واحتلتنى صورة خالد قلبا وقالبا يكمل :

ــ أنا تخلصت حتى من الإحساس بنكستكم . أنا خلف الضباب . . . أنا أبعد من السحاب : أنا حر أتعرفين ما أعنى بأنى حر . . ملتاعة أسأل محمود :

ــ هل كان يعرف . . كل ما ظننت أنى نجحت فى أخفائه عنه . . و . .

قاطعنى بحدة وهو يقول :

ــ كلنا كنا نعرف .

● ● ●

تناثر آخر أمل لى وهم يجمعون حاجياتى من هنا وهناك . . . فى أن تأتى روحه . . تقطع المسافة فى غمضة عين من لندن إلى القاهـرة . . وتزورنـا هنا . . تناثر آخر أمل . . . حتى فى هذه الدار التى يعرفها لأنى سأعود إلى دار والدتى . . ولو عاد هنا لن يجدنى لتكتمل غربته . . . وأنا واقفة داخل ظلمة ثوبى . . . ظلمة جلدى الذى اصطبغ بسواد مـلابسى كلها . . . وداخـل ظلمة روحى . . . وأتى دور نزع الصور واللوحات التى تزين الجدران . . نزعوا أجملها . . صورته . . كنت واعية وعيـا جادا ويقـظا وهم يتعمدون اظهار العناية بها والاهتمام بمعاملة الإطار أمامى . . إلا أن هـذا لم يستمر طويلا . . لم يستطيعوا الاستمرار فى دورهم . . فعادت لتنكفىء من أحدهم على وجهها . . كانت تلك اللحظات كنبؤة لكل ما سأواجهه . . اقتـربت بكل حبى النازف . . بكل اللهفة الموجودة . . ومددت يدى أعدل الصورة وأسحبها إلى صدرى . . ومع ذلك لم أستطع أن أتخلص من احساسى بأننى اصبحت كدميتى القديمـة . . التى كنت أملؤها بـالمفتاح فتسـير . . فهكذا مشيت فى خـطوات مستقيمة إليهـا واحتضنتها وبنفس الخـطوات المـوقعـة المستقيمة عدت بظهرى إلى الـوراء . . . لم يلحظنى أحـد . . وهل يلتفت الكبار إلى الدمية ؟!

إطار واحد لم يستطيعوا نزعه من على الجدران إطار عنيد . . إطار داخله كلمة الله . . كنت أعى أننى لن أعود هنا مرة أخرى . . بدت لى الجدران عالية . . أعلى مما هى عليه . . لا بل بئر عميقة أنا فى قاعها . . الظلمة تشتد فتتحول الجدران إلى مقبرة . . الصمت والسكون والوحشة ورائحـة مكان مهجور . . أشم رائحة كانت لا تزال عالقة بالأسقف والأبواب . . النظرات

الأخيرة للوحة الوحيدة . . اللوحة العنيدة والشعاع المنعكس على زجاج النوافذ فى غروب يوم يولى كان آخر ما رأيت . . وسحبت الباب خلفى . . وكما أرجع الفراغ فى الداخل صدى انغلاق الباب . . كان هناك فى أعماقى رجع آخر . . رجع لصدى الفجيعة والأهمال والنسيان . . كأنما كانوا يفرون . . فى عجلة من أمرهم . . ما يشغلهم غير ما يشغلنى . . بالأمس كنت فى وداعه . . واليوم فى وداع المكان الذى ضمنا معا . . هنا كانت أحلامنا . . هنا كان نجوانا . . كم سمعت هذه الجدران العارية الباردة الآن . . . همساتنا . . صياحنا . . عراكنا . . صلحنا وخصامنا . . ذهبوا جميعا . . وتركونى وحيدة مع الجدران ان نسيانى فى هذا المكان تثرثر لى بكل دخائل نفوسهم ويالها من معرفة . . . معرفة كنت أحسها وأشعر بها كما يشعر المقرور بالدفء . . لم يكن وعيا قاطعا وحادا . . وكانت ثقافتى واهتماماتى تساعدانى على أن أجد تبريرا لكل بدوات النفوس التى تظهر غير ما تبطن . . الدسائس الصغيرة . . غيرة النساء التى لا تبرير لها . . ثرثرات النميمة . . وكنت أحدث نفسى ماذا يعنينى من أقاربه طالما أنه لى . . ولى وحدى . . بعيدا عن متناولهم . . فلا شىء يهم . .

وغشيت أعماقى ظلمة قاتمة . . . وغشيت الشقة ظلمة الغسق . . إنه الغروب . . وما أبغضه إلى نفسى . . إنه انتهاء ليوم . . انتهاء لجزء من العمر . . الانتهاء . . الانطفاء . . الموت . .

والتفت التفاتة أخيرة لأودع الجدران . . كنت أودع كل شىء . . ليست الجدران العارية فقط . . ولكن فى نظرتى التى حوت كل شىء حتى خربشات الأثاث على الجدران وآثار أصابعه وأصابعى على مفاتيح النور .

ــ ياست . .

ياست تختلط بصوت محرك عربة أقاربى . .

ــ ياست . . ياست

والتباع ما زال ينادينى . .

ــ ركب أقاربك وعلينا أن نتبعهم . .

صوت محرك عربتهم يوغل فى البعد متلاشيا ليتركنى وحدى مهجورة على الرصيف كطفلة قليلة الحيلة .

ــ ياست . .

الصوت ينتشلنى من وحدتى . . مدلى حبلا من الخلاص . . وأدركت لحظتها كيف يمكن لإنسان كبير . . عاقل وراشد أن يغرق فى شبر ماء . . !

ولم يكن هناك بد من أن أطيع . . فلا مكان لى إلا داخل عربة نقل الأثاث . . فاندفعت أقفز سلم المؤخرة . . وللحظة قصيرة تشابه مدخل العربة المظلم بمهبط قبر من أحمل صورته . . جمدت مكانى ولكن دفعة من يد التباع أدخلتنى إلى قلب العربة . . دفعة فى نهاية ظهرى قرب مؤخرق . . جسدت إلى بجرأة سافرة الشعور بوحدتى وتوزعى . . تلقيت دفعته ولم يقف ذهنى عندها . . لم أشعر بالاستياء . . كان كفعل مجرد من أى غرض أو هدف . . كدت أن أصعد . . أن أنتهى مما أنا فيه . . وكدت أزحف على يدى . . كانت العربة على وشك التحرك . . ووجدت أنفى يندس أسفل مقعد كرسى مقلوب . . شممت رائحة التراب فرفعت عينى . . فواجهتنى ظلمة مغبشة بالأضواء المنسحبة للنهار الذى ينقضى . . تماسكت وتساندت . . تعودت عيناى على الرؤية . . ثم أغلق التابع الباب خلفى . .

فأظلمت الدنيا تماما . . شعرت بالضيق . . انقضت على هواجس مبهمة مع الظلام تفرخ المخاوف التصورات . . كأنما تنبعث من أعماقى البعيدة فى الطفولة . . سمع السائق تخبطى . .

ــ عندك شباك على الشمال . . . افتحيه . .

تحسست حتى عثرت عليه . . فتحته . . انسكب الضوء من تلك الكوة التى سماها شباكا . . مددت رأسى أشم الهواء . . أرى الضوء . . كنت كالسجين المنقول فى العربات المغلقة . . الناس . . الشوارع سيارة بيضاء تقودها امرأة . . ارتفعت إلى عينى نظرة صبى مدهوشة . . الأصوات المتداخلة تصك سمعى . . البيوت المارة . . كلها تنقذف للخلف تبعا لسرعة السيارة . . صحبة أثاث بيتى توحى لى بتوقف كل شىء . . والحركة فى الخارج تؤكد أن لا سكون . . أن الزمن لايقف من أجل أحزاننا . . وأنا التى ظننت أن حركة الكون والكواكب فى مجراتها . . وحركة الريح . . وحتى نبض قلبى سيتوقف مع القلب الذى توقف . . كنت أظن الزمن سيقف بى عند تلك اللحظات التى قبلته فيها آخر مرة هناك فى المستشفى . . أما كل ما قمت به منذ تلك اللحظات المتلاشية فى طيات الزمن المنقضى بالرغم من أننى فعلتها بكل وعى يقظ . . إلا أننى كنت خلالها ولم تكن خلالى . . ما كان فى أعماقى منذ لحظتها هو تلك القبلة الضعيفة الحانية . . تلك اللحظة التى انقذفت للماضى وأصبحت ذكرى . . كان لا يزال لسعها على شفتى . . بالرغم من أننى كنت أدرك فى أعماقى أن الأمر قد انقضى ، إلا أننى وجدت نفسى أثبت تلك اللحظة على جدار الزمن ، لتظل حية موحية تحمل دفئه

المتلاشى فى برودة الموت التى حملته أمواجه عندما نشر جسده قلوعه لتلك الرياح السوداء التى حملته بعيدا فى أعماقها المظلمة . . أحاول أن أهرب من لحظاتى . . فكانت صحبة الأثاث لى تغرقنى فى نفس من أحاول منه الهرب .

● ● ●

يربتون على ظهرى لأسرع خطاى . . فالموظف الكبير . . والموظف المسئول . . والموظف الأوحد . . والموظف ال . . هكذا خلعوا عليه كل ما أعرف من معانى الأهمية والقدرة . . فهو الذى فى يده أن ينهى أوراقى . . الأوراق الكثيرة ليخرج معاشى فى أسرع وقت ممكن . . جمعوا فى ثنايا كلمة المعاش كل ما يمكن أن يعوضنى عن رحيله !! . . . عبارة مربية سلوى . . اللقاء فى الجنة وربنا يصبرك . . كانت هى الكلمات التى يمكن أن تعطينى أملا فى التعويض . . أما المعاش فمهما كان حجمه فلا . . وعادت ربتاتهم على ظهرى تعيدنى إلى دنيا الناس والأحياء . . أسرع الخطى . . أقابل الموظف الكبير المزعوم . . فأى الاثواب أرتدى ؟ . . مفروغ منه أنه اللون الأسود ولكن أنسبها ما يضفى على لسعة دامية ، لأبدو كمصعوقة حديثا . . أنسبها ما يوحى بأن زوجى رحل من ساعة فقط . . اتشحت بالسواد . . وهالتنى حرقة الضوء عندما وصلت إلى عتبة الشقة فى طريقى للخروج لأن أيامى تمر فى الدار . . بين الجدران العالية التى تحجب أشياء كثيرة . . الضوء هنا كاشف صريح يخرق مقلتى فيغشو بصرى . . وبدت لى الأصوات ضجيجا مختلطا شديد الارتفاع كأنه مطارق معدنية تتعامد على طبلة أذنى . .

نصعد إلى مكتب فى الدور السابع لنهبط إلى آخر فى الدور الأول . . نعاود الكرة مرات ومرات ومازلت منقادة لاهثة خلف محمود . . وتذكرت دراستى فى كلية الآداب قسم التاريخ . . منذ أن اشتكى الفلاح الفصيح فى مصر القديمة من معاملة الموظفين له . . هأنا ذى فلاحة مصرية لا أدعى صفة الفصاحة . . أئن من داخلى . . تعبت من تسلق الأدوار . . والإحساس بالخجل يملؤ نى . . كأنما ما خرجت ولا ذهبت لمدرسة أو جامعة وما تعلمت وكأنما لم أختلط بالرجال قبل ذلك أبداً . . العيون تحدق فى . . فبكم أساوى لمعاش . . ويتكثف خجلى وأنا أدير ظهرى خارجة من مكتب أحدهم . . أشعر بالعيون تتسلق وتزحف على ساقى وظهرى . . فالعيون تخترقهما رغم الجورب الأسود الذى أشده عليهما . . العيون ما زالت تحدق فى . . هذه العيون التى تحمل دوماً اتهاما ظالما للمرأة التى يموت زوجها . . ثم يعودون ليتفرسوا فى فبكم أساوى لمعاش ! ؟ . .

تنفست متنهدة وأنا أقف عند آخر موظف . . أوقع أو أبصم لا يهم . . بعدها اختفى محمود . . فص ملح وذاب ، كأنه انتهى من مهمة صعبة والباقى على . . حرصت ألا أستدير أطول مسافة ممكنة من أمام آخر موظف . . بعد أن سحبت يدى من كفه ظللت أتراجع بظهرى لمسافة . . وفجأة قرب الباب استدرت لألقى بنفسى فى أول عربة أجرة . .

وعاد الضوء ينقب عن مقلتى . . والعربة فى مناوراتها تحطم كل مبادىء القيادة التى سمعت عنها أو عرفتها . . العربة تتلوى كالثعبان وعلى كورنيش النيل كانت مركبتى ثقيلة ترسل الزفرات . . تلفت حولى مستطلعة . . كانت

كل المركبات تحتضر وينبعث العادم الخانق منها ليزيد من ضيقى بالطريق والزحام . . التفت السائق قائلا :

ــ بتدخنى ياست ؟

ــ . . . .

ــ بتدخنى ياست ؟

وسمعته يصيح فجأة :

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله . . إنا لله وإنا إليه راجعون . . أنتم السابقون ونحن اللاحقون . .

الموت يلاحقنى فى كل مكان ! . . حتى فى اختناقات المرور وتوقف شرايين الحركة ! فى هذا الحر اللافح ! . . . وابحث هل هناك موكب جنازة ؟ يجتاز الكورنيش فتعطلت الحركة . . آه . . إنها السيارة السوداء . . اللافتة المشهورة المهذبة ببرود . . تحت الطلب . . لايريد أحد أن يطلبك ولا أن يتمناك . . الشمس تتعامد . . الظلال تقصر وتربض تحت الأقدام وتحت السيارة . . السائق يمد لى يده بجريدة أحركها أستجدى تيارا من الهواء . . ! الهواء ساخن وأبواق السيارات ترتفع . . السيارة السوداء مليئة بالرجال . . صامتين . عيونهم ذابلة محمرة أصدقاء وأقارب . . أيهم ياترى أكثرهم حزنا على المسجى داخل هذه العربة ؟ . . ذلك الشباب ؟ تراه أبوه أو ابنه سيارات أجرة مليئة بسيدات متشحات بالسواد تقف مصطفة خلف العربة السوداء . . كلهن محمرات العيون دامعات المقل . . أعلم أنهن يبكين عزيزا غاب . . ليس بالحتم من يرقد داخل هذه العربة . . ربما يكون قدمات منذ شهور أو سنوات . . وحدث اليوم فرصة لتجديد الأحزان والذكريات . . فالحزن أيضا عشق واستحلاب . .

واغتصبنى حزن أسود له قوام المارد . . وأعاد لى كل ما مر بى مجددا . . وفتح جرحى فمه . . وصحوت على السائق وهو يترك مكانه بسرعة إلى الجانب الآخر للطريق ، ليمد يده ليأخذ عود ثقاب مشتعلا من أحد راكبى العربة السوداء . وقبل أن أسحب نظراتى فى السائق وعمن يشعل له السيجارة شدتنى ابتسامة من يقدم الثقاب . . فلم يكن دامع العين ولا حتى متظاهرا بالحزن . . وجهه أليف . . رأيته أين ؟ لا أدرى . . وقررت أن أتأكد مما رأيت . . فإذا به يبتسم ابتسامة أكبر من الأولى لينهيها بغمزة من عينيه برموشها !! . وظللت أحاول أن أستعيد أين رأيت هذا الوجه . . كأننى أتسلى . . على صفحة جريدة أو مجلة ؟ . . ترى فى السينما . . لا . . ليس فى السينما . . إنى لا أذكر بالضبط ولكنى رأيته . . إنى على يقين من أنى رأيته من قبل أين يامها . . أين ؟؟؟ ويبدو أن نظراتى لوجهه قد طالت عما ينبغى لامرأة أن تنظر لرجل . . دهشت أكثر عندما وجدته يعيد الغمز بعينيه . . أيكون قد ظن أن شعره الأشقر وشاربه المهذب فى عناية وجاذبية قد أعجبتنى . . سخرت من أعماقى لغروره . . بعدت بنظراتى عنه . . وأنا أردد لنفسى كن فيما أنت فيه . . ولكن الذى أدهشنى أكثر أننى أحسست براحة فى أعماقى لهذه الغمزة . . هل هو تجاور الموت والحياة . . أم الهروب من قتامة الموت إلى نبض الحياة وألقها ؟ . .

. . . ستمر العربات سريعا وينقضى كل شىء . . . ويذهب الجميع كل إلى حال سبيله . . ولكنى أشعر أن هذه الراحة التى انبعثت داخلى لأول مرة سوف تظل معى . . كأننى كنت بحاجة إلى من يؤكد وجودى . . كيانى . . وكانت أولى الرغبات السافرة فى كأنثى منذ زمن . . . مللت من الجلوس ،

ساقاى تؤلمانى . . وضقت بالحر ولزوجته . وفتحت الباب وخرجت استروح نسمة شاردة . . ولأرى إن كان هناك أمل فى الخلاص من هذه المصيدة . . ؟ وقبل أن أمرق إلى العربة عائدة كان صاحب المغازلة التاريخية يمد لى يده بكارت أبيض . . وتمهلت نظراتى على اسمه . . لم يكن مباليا بالموقف الذى هو فيه . . تذكرته إنه المخرج فكرى فؤاد . . أمسكت الكارت . . أحسست بلسعة أثارت الاضطراب والتساؤلات داخلى . . فماذا يريد ؟ . . وماذا أريد منه ؟ . . استنكار داخلى يشملنى . . كيف لى أن أتحدث مع رجل لمجرد أنه ناولنى كارته . . ولماذا قبلت ذلك ؟ . . ولكن شيئا ما فى نفس الوقت لم أدرك كنهه منعنى من أن أمزق ذلك الكارت . . وبعد أن قبع الكارت فى قاع الحقيبة كان هناك شىء أيضا يقبع فى أعماقى . . فقد أثارتنى طوال الطريق جرأته وثقته الزائدة فى نفسه . . كما شغل ذهنى وخيالى العالم الذى يعيشه . . عالم الاضواء والشهرة والغموض والسحر . . هو يريد أن يشدنى إلى عالمه الذى لم يكن حتى تلك اللحظة مطمحى . . أن عالم الكلمة المكتوبة التى كنت أحاولها ويشجعنى خالد عليها هى التى تملك على نفسى . . . . وجدتنى أقنع نفسى بأن عالم التليفزيون وعالم الكلمة المكتوبة ليسا عالمين منفصلين . . بل هما عالم واحد . . وحقيقة فإن ذلك البريق أدار رأسى وأنا لم أسع إلى ذلك ، بل أن ذلك العالم هو الذى ينادينى . . وأن يفعل الإنسان شيئا متاحا ، وأن يندم بعد ذلك لخير من أن لا يفعل ويندم أيضا . . فما الذى يمنع اشتغالى مذيعة وهكذا تعمقت الرغبة فى أعماقى بدلا من القلق والتوزع . . أمى لم تكن مقتنعة فى البداية ولكنها بعد مناقشات ومعارك سلمت بالأمر ، ولكن بعد أن أقتنعت لا تسليما أو استسلاما . . أما الليلة التى حصلت فيها على

رضاها بدخولى إلى ذلك العالم . . فلم أنم . . بت أحلم بكل خيالى الذى بدأ كحصان جموح فانطلق بكل قواه المجنتحة ليحملنى إلى بعيد . . بعيد . . إلى أحلام الطفولة والصبا . . عندما كنت ألوك أنا وأترابى فى المدرسة الاعدادية والثانوية لبان الشهرة والأضواء والنجومية من مجلة كوكب العصر التى كان يصدرها يونس وجدى المحرر الفنى الشهير . . ومع كل صفحة وصورة وخبر تطير بى أحلام يقظتى على أضواء الشهرة والتصفيق الحاد والهتاف لى يصم أذنى بلا سبب مفهوم استحق عليه هذا التقدير . . . والآن سيرانى كل الناس . . الذين يعرفوننى سيغبطوننى . . . والذين لا يحبوننى من أقاربى سيزدادون حقدا على . . سأكون شيئا ذا أهمية بدلا من رمية الترمل داخل أربعة جدران . . .

وتعود الموجة لتنحسر وتتكسر أمام توجساتى الداخلية . . أمام صخور قلقى الخاص الذى لا يعرفه أحد . . هل هذه هى الوسيلة التى أنتقل بها إلى ذلك العالم ؟ . . ولا أدرى من أين سقطت إلى أعماقى كلمة اكتشاف . . وتداعت المعانى المبتذلة التى صاحبت هذه الكلمة الجليلة وتاريخها . . وسرعان ما فتر حماسى . . وتهاوت أحلامى كالفراشات المحترقة . . ولكن يظل الحلم حلما ولاينى يطارد المرء طالما لم يتحقق . . وتذكرت فكرى فؤاد . . المخرج الذى جسد لى الحلم . . . وتذكرت ثقته الشديدة بنفسه . . فاستدعيت ثقتى أنا الأخرى . . سأدخل ذلك العالم ولن أجعل لكلمة الاكتشاف ذلك المعنى الذى يضفونه عليه . . ولأنتهى من كل شىء . . قلقى وخوفى . . خوفى من نفسى على إرادتى . . وكان لابد أن اتصل به . . وعندما أمسكت بعد ذلك بأيام بسماعة التليفون . . لم يكن تنفيذا لقرار اتخذته

ولا خلاصا من قلقى وخوفى . . كان شيئا لا إراديا . . لسعنى ملمس البطاقة التى تحمل اسمه . . تركت السماعة مترددة . . ولكن . . لم يبد كأنه أحد أولئك السحرة الذين كنت أراهم فى طفولتى وأنا مستلقية ، وأمى تقص على حكاية قبل النوم . .

وكمن كان على موعد مسبق معى بادرنى فور سماع صوتى :

ــ أتحبين الشعر يامدام مها ؟ . . إن داخلك فنانة . .

ـ كيف عرفت ؟

ــ إن سمتك لاينبىء أنك تحملين فوق هذا الجسد الرائع والوجه الجميل رأسا خاويا . . طريقة حديثك . . .

. . فكرت . . هذا الرجل يجيد ممارسة الوقاحة . . قلت :

ــ أهوى الشعر . . . أتذوقه . . بل أحاول فيه . . تمارين سمها أو تجارب . .

ــ وهذا ما يجعلنى أعرض عليك العمل معنا . . وقد سألتك يوم رأيتك فرميتنى بنظرة احتقار عظيمة ، وهأنذا نظرتى كانت صائبة . . فأنت تهوين الشعر . .

وانقطعت المكالمة فجأة . . ولم أحاول أن أطلبه مرة أخرى . . كنت أفكر فى ديوانى . . أيام قلائل ويخرج ديوانى الأول إلى النور . . كنت قد نسيته تماما . . خلال فترة الحداد أدخلوا على رجلا أصر على لقائى شخصيا ليسلمنى نسخى الخاصة من ديوانى الأول من باكورة الطبع قبل أن يطرح فى السوق . . كان مجموعة من قصائد عن فلسطين . . وبعد أن ذهب الرجل بتوقيعى باستلام النسخ ، ارتفعت ثرثرات النسوة أقاربى . . سألونى عن اسم

الديوان . . ولم يفهموا معنى أن يسمى ديوان باسم اللعبة والحقيقة . . لم يكونوا يعرفون أنى كنت أرى النضال الفلسطينى مرة حقيقة مقدسة تعلو فى شموخها على حقائق كثيرة . . ومرة لعبة وكأن هناك من يلعب بفلسطين وحقيقة قضيتها . . وياويلى كان هما ثقيلا أن أسقط بين نسوة كل واحدة منهن تحاول أن تستشف ما بداخلى . .

– لماذا اخترت هذا التوقيت للديوان ؟

وهل كنت اخترت الموت !

– وهل ستستمرين ؟

– . . . الله أعلم . . .

– اتركونا من الديوان والشعر . . ما أخبار معاشك . . هل حددوا لمبلغ ؟

– . . . . . .

– اياك والزواج . . .

– زواج ؟ . . أى زواج ؟

– ياأختى . . . ظل راجل ولا ظل حائط . .

– ياأختى ده كلام قديم . . تشتغل وتقف على رجليها هى وبنتها . . قدامها بنت زبيدة هانم ترملت أصغر منها وشوقى ربت أولادها ازاى . .

شهقة تنبعث من إحداهن ، ثم تقطب حاجبيها وكأن ما ستقول هو خاتمة القول :

– المعاش . . المعاش تضيعه . . وهل أى راجل سوف يصرف عليها أكثر مما تأخذ .

ـ لك حق ! كيف تصرف على البنت ؟ . . المدرسة ومستواهم ؟ ياأختى . . لازم يحافظوا على نفس المستوى .

كنت أنظر إلى الشفاة التى تتحرك بالكلام مملوءة الأشداق . . السنة تتحرك بدلا من الصمت أعمل . تسلية على الحساب . ووجدت نفسى ! أو أوجدونى هم ! متزوجة وأرملة وست بيت . . وأحاول أن أعمل . . مصيرى يتحدد أمامى فى معزل عن إرادتى . . لم تفكر إحداهن أن تكلف خاطرها وتسألنى مجرد سؤال !! ماذا نويت أنا أن أفعل وكيف سأواجه مصيرى . . وانتقل الحديث بهم عن أمومتى . . فالكل يتغنى بها . . أنا ينبوع الحياة والمعين الذى لاينضب من الحنان . . أحس نفسى غنية . . ثرية . . صفات ألبسونى إياها ليسلبونى فى نفس الوقت كل رأى أو مطلب لى . . ولكن لا يهم . . فلم أعد أطمع فى شىء . . وكما كان دائما فى نجدتى عندما أغرق فى مشكلة . . أحسست به هنا أيضا بجوارى موجة من الدفء أحاطت ببداية ذراعى أعلى عند كتفى . . وبعدت بعقلى . . وسمعته كعادته يقول لى :

ـ لا تقولى مها كلمة لا يهم . . فمن المهم أن تكتبى . . أكتبى بحرية طالما أنك تجدين نفسك فى ذلك . . إن لك رشاقة الكلمة . . لم يسخر مرة واحدة مما أكتب . . لم يعاتبنى ولو بالصمت . . وأنا أرسم على الورق قصة الحب وراء الأخرى نغما وموسيقى .

● ● ●

مضت فترة طويلة وأنا أقاوم ترددى فى طلب المخرج فكرى فؤاد مرة أخرى ، وكنت أبحث داخلى عن أقدامى السابق بالرغم من إحساسى بالارتياح إثر مكالمتى السابقة . . كنت أنقب فى أعماقى عن ذلك الارتياح الذى شعرت به . . ذلك الاحساس الذى أظهر لى أن مهارة التوقع عنده عالية . . أزال عنى الكثير من الحرج . . فأن يكون الطرف الآخر يتوقعك يعطيك الاحساس بأن ما تفعله شىء عادى . . . . بل وكان منتظرا منى . . . لقد أعفانى ذلك المسلك من ترددى فى أن أطلبه . . . يشدنى إليه معان كثيرة لا أستطيع أن أتبينها أو أحددها تماما . . . ولكنه رغم قصر المكالمة السابقة فقد استطاع أن يسد الفجوة بين بعض معلوماتى السابقة عن الحياة وبين واقع أحس أنه سيكون مستقبلى . . كان نوعا غريبا من الرجال . . . فإن معرفتى كانت برجل واحد . . خالد . . . وكل أصدقائه كان لهم تشابه فى التكوين النفسى وتقارب فى المطامح والأحلام . . . أما هذا المخرج فإن كلماته كانت تسطع بارقة فى ذاكرتى . . . أحس أن عالمه عالم مسحور . . عالم كالذى كنت أملكه فى طفولتى . . عندما كانت لى الإرادة كاملة . . عالم نسيجه الحكاوى الكثيرة منذ أن كنت طفلة وجدوها أمام الجامع فى ليلة ممطرة . . إلى كونى حفيدة شهر زاد بحكاويها التى لا تنتهى . . . . . عالم السحر والخيال والخوارق . . هذا العالم الذى عرفت بعد ذلك أنه لن يعود . . وأيقنت مع الزمن أننا كنا نملك إرادتنا فى طفولتنا فقط . . . فطلبته . . . . وعندما أتانى صوته مختلطا بضوضاء وصخب شديدين . . . سألته قبل أن أحدثه عن أى شىء

ـ ما هذا الضجيج . . أنا لا أسمعك . . . ما هذه الأصوات ؟
ـ دعك من كل هـذا الضجيج . . . . سـأرفع صـوتى . . . ستفهمين ما سبب الضجيج فى حينه . .
قلت لنفسى أنه ما زال يؤكد لى أننى سأعمل معه .
ـ أتودين سماع رأيى فى ديوانك ؟
ـ ديوانى . . . من أين عرفت ؟
ـ من صورتك على الغلاف فى المطبعة . . .

● ● ●

أفواج . . . أفواج من البشر تندفع من باب ٤ لأول مرة ألحظ أن الباب الرئيسى لمبنى التليفزيون يعرف برقمه يتزاحم عليه جموع من البشر ، ترانى أسير مع مخرج يحمل هو الآخر رقما يعرف به ؟ ونصطف خلف الطابور وأحدد رقمى ورقم المخـرج أعـد . . . كنـا رقم ١٠ ، ١١ . . وتختلط الأرقـام ببعضها . . كل يحيى الآخر بشدة ، ويقدمنى المخرج لأكثر من رقم ، وأحس أننى بصحبة شخصية لا يستهـان بها . . وحـرارة المصافحـات تزداد . . . وأوقن أن هؤلاء الناس لديهم طاقة بلا حدود عـلى حرارة التـرحيب . . . يتسرب إلى أعماقى رويدا وهادئا إحساسى بالأمان . . كنت بالأمس بين جمع من أقاربى أحس بانعدام كثافة وجودى كإنسانة . . . أما هنا فأحس وجودا أكبر من حجمى . . أين أنا من وقفة الأمس كدمية ملقاة فى ركن الدار ، وقد نزع طفل شقى رأسها فصارت جسدا بلا رأس . . . وهل يلتفت لمن لا رأس لها ؟! وأقاربى استغـرقهم جمع الأشيـاء الكاملة . . . الـدولاب . . حجرة

الصالون . . . حجرة الصالون وكرسيه المقلوب فى عربة العفش والظلام أعاد إلى اذنى صوت التباع بصيحته . . ياست . . اركبى مع العفش . .

أما هنا فتشعر بالعطاء من أيد سمراء وشفاه تخرج منها الكلمات عذبة بلا احتراز أو مساءلة . . تعطيك ترحيبا دون أن تعرف من أنت ! وتعطى تأييدا قبل أن تعرف من أنت ! . . حتى لقد ظننت لوهلة أنهم يعرفوننى . . . وقلت لنفسى متوهمة ربما من كتابى الذى صدر منذ شهر . . . فلاشك أن كل العاملين هنا مثقفون . . . . ثم تساءلت باسمة من غرورى ، وهل صدور ديوان وحيد لى خلق لى كل هذا القبول ، أنا لم أر أحدا منهم من قبل . . ولكن ترحيبهم العفوى والذى اعتادوا أن يقدموه لكل من يلقونه بلا مقابل أسرنى وبدد احساسى بالوحشة والغربة وسط هذا الحشد من العاملين الغادين والرائحين ، حتى لقد جسد لى هذا المبنى ما كنت عاجزة عن تخيله عن سوق عكاظ .

حرارة الكلمات والتحيات والشد على الأيدى بالرغم من كل هذا الذى ألقاه أينما توجهت مع مخرجى العزيز فقد كنت ضائقة بكل ذلك ، وأريد أن أفرغ منهم جميعا لأرى ما كان يشدنى أكثر . . ما كان يتحرك داخل صدرى من فضول كجيوش النمل . . . هنا اذن فى هذا المبنى الكبير الذى بدا لى لأول وهلة كميدان باب الخلق يضعون البرامج والمسلسلات وكل ما أشاهده فى أى مكان . . . . فى أى ركن من هذا المبنى يحدث كل هذا !؟ أين هى تلك الأجهزة السحرية التى تنقل كل ذلك إلى المسافات البعيد ؟ . . . وكأنما قرأ السؤال فى نظراتى . . .

ـ كل شيء بأوان ياست مها . . غدا تعرفين كل شيء . . . وحتى تلك اللحظة لم أكن أصدق الرجل . . . هل فعلا سوف أعمل مذيعة ؟ من أدرانى لعله واحد من الذين نقرأ عنهم فى الصحف . . رأى امرأة حزينة ووحيدة فتحـركت فى أعماقـه غريـزة القنص . . . صيد سهـل وزيارة التليفـزيون وتقديمى لزملائه من عدة الشغل . . إذا كان الأقارب تخلوا عنى فكيف لهذا الغريب الذى لقيته مصادفة فى يوم قائظ وسط اختناقات المرور أن يجعل منى مذيعة . . . إنه القنص لا غير . . قانون الغابة كما هو قانون الحياة . . رغبة ملكت على نفسى فطاردتنى . . . وربما أصبح ضحية لهذه الرغبة التى ألقى بذورها هذا المخرج فى أعماق خيالى . . فذات مساء رن جرس التليفون . .

ـ مبروك نجحت فى الاختبار . . .

وصحت بفرحة غير مصدقة . .

ـ نجحت . . . ! اختبار ؟! . . . اختبار ايه ؟ . .

ـ اسمعى بكرة . . الساعة عشرة عندك تسجيل . . .

. . . .

ـ لا عليك . . . مسوغات التعيين ليست مشكلة

ولم أصدق إلا بعد أن جلست أمام الكاميرا ، ووجدت نفسى منخرطة فى حديث لم يسبق لى اعداده . . فقط رأس الموضوع والضيف والكرسى . . . وكلمة من هنا وكلمة من هتاك وينسج البرنامج الذى يتمدد على مساحة من الزمن تشغل وقتا من الإرسال الذى علمت أنه غول لا يشبع . . . وبعدها عرفت ما هو الوهم وما هى الحقيقة . . وأننى لست الوحيدة التى لم تمر لا على لجنة ولا على شيء . . وبدأت أعرف أشياء لم أكن أعرفها . . ! ؟ إن إيقاع الحياة هنا يختلف عن أى مكان آخر . . يختلف عن إيقاع الحياة فى التأمين

والمعاشات . . كل شيء هنا له قانونه الخاص ونبضه المعين . . الكل فى تعاون كفريق واحد منهن توقع نفس الإيقاع . ولكننى . . وأصبحت وسطهم واحدة منهن توقع نفس الإيقاع ، ولكننى لاننى كنت ما زلت حديثة العهد بما يحدث أمامى ، فكانت لى القدرة على رؤ ية والتقاط أشياء أظننى كنت أتميز بها عنهم . . . مرة قلت لمخرجى :

ـ هناك فكرة

فقال :

ـ قولى فكرتى . . بياء الملكية لتسجل باسمك لنخرج برنامجا وننفذه . . .

وأحسست به حريصا على وحريصا على أفكارى . . إن عنايته ورعايته تؤسراننى . . ماذا يمكن أن أقدم له مقابل كل ما فعله ويفعله من أجلى . . . لقد صدق الرجل فيما وعد . . . وتقلبت مشاعرى وأفكارى تجاهه . . . ما زالت اليقظة منه فى أعماقى . . لا أريد أن أكون قنيصته ، ولكنى بالرغم من ذلك كنت أشعر أنى فى مأزق ! عدم مبادرته بالهجوم المباشر . . . عدم طلبه لموعد أو دعوة لفنجان قهوة ، أخافنى ذلك أكثر . . . إنه واثق بنفسه لدرجة الانتظار . . لحتمية وقوع الثمرة عندما تنضج . . . هو سيختار توقيته الذى يراه مناسبا . . متى يكون ذلك لا أدرى . .

كنت أعْرف أن حزنى الذى يسربل أعماقى كشال أسود وتطل ظلاله من عينى ، يلتقطها هو بمهارة المخرج أو عين الصياد . . . أرملة صغيرة وفقيرة !؟ فقر الإحساس بعدم مشاركة الآخرين لى فى همومى الصغيرة والكبيرة . . . ألا يأسى على أحد ولا يحزن من أجلى أحد ، وألا يكون لى من

أعتبره سرى ونجواى . من أضع رأسى على صدره وأبكى حتى أفرغ كل مافى أعماقى . . . أغتسل بدموعى . . . وكان هو يحاول أن يكون الذى يأسى ويهتم بى . . . وعندما أبدو محزونه يحيطنى برعايته ، ويظل يلمح فى السؤال بالحديث أو يروى لى بعض النكات حتى أضحك أو ابتسم فيقول لى ناصحاً :

– الق بالهموم وراء ظهرك . . حاولى أن يكون لك بعض الولاء لذاتك . . . عيشى وتمتعى وانطلقى . . .

كانت نصائحه تحمل فى طياتها بدايات التمهيد الفكرى لما يريده منى . . . وفكرت فى خالد ألوذ به . . . ولكن أين هو ؟ فالتفكير فيه لم يسعفنى بل ذكرنى بمقولة قريبتى ظل راجل ولا ظل حيطة وهل لابد أن ألوذ برجل ؟ هل سيطاردنى الاحساس بالدونية ! ألا أعمل أنا الآن أيضا ! . . ألم أكسر تلك الحلقات من الوصاية وأخرج للعمل مثلى مثل أى رجل ؟ . . . وفكرى فؤاد عندما يبدأ العمل . . يتصاغر حجمى ويتضاءل احساسى بذاتى . . الكاميرات تتحرك ويتحول هو إلى شخص آخر . . . يبدو كامبراطور يأمر وينهى فى قوة وصرامة وحسم . . . ويصيح استوب . . . ما يريده فى ذهنه هو وحده . . . ويتحول الجميع إلى أدوات ويبدو أقوى مما أظن وأتصور . . . وتتلاشى رغبته فى أمام ضرورات العمل العاجلة . . . فيختفى ضعفه نحوى ويسترد قوته واستقلاله ويكون فى غنى نفسى عنى . . . فيعاملنى كأنه لا يعرفنى وأتقلص داخلى . . تلك لحظات قليلة . . وبالرغم من ذلك وهناك فى أعماقى - مهما كانت أغراضه التى وراء الحاقى بالعمل شعور – بالتقدير نحوه وعرفان بالجميل . . ولم يكن بوسعى أن أنسى أننى بفضله انتزعت

انتزاعا من بين الجدران الباردة الناعمة الملساء ملقيا بى فى خضم هذه الحركة التى تكاد أن تدير الرأس وأن تفقد التوازن . . . وأن تـذوب فى إيقاعهـا اتجاهات الطريق . . وكان فى أعماقى أيضا تسليم بمقدرته ومهارته فى عمله وحرفيته فيه . . . أما عن مدى نفوذه وسطوته فى هذا السوق الكبير ، فقد كان يكفينى أن أتذكر أنه كساحر . . بين يوم وليلة استطاع أن يفرضنى مذيعة . . وكما لم أكن أعرف كيف أخرج من مأزقى معه . . . فى تلك العلاقة التى يلعب فيهـا جانب التـوريط والتورط دورا هـامـا . . والبحث عن الخـلاص من مطارداته الصامتة المنتظرة . . هل يكون بالعودة للقبوع بين الجدران الباردة التى تذكرنى بالمقابر . . وعودة للوحدة الوحشية التى كانت تقتـات أعصابى وأيامى . . أم صداما مروعا بينى وبينه يذهب بكل شىء . . . ولكن لا شىء من جانبه يمكن أن يؤخذ عليه . . ولكن تلك الثقة . . وذلك الانتظار لنضج الثمرة يوتر أعصابى . . كنت أريده وأتمنى أن يبدأ الهجوم لأحدد كل شىء وأنتهى منه . . ولكنه لم يفعل . . فقد القدر أو هو . . أو ماذا لا أدرى . . كفـانى مئونـة كل شىء . من يـومها وأنـا بينى وبين نفسى أؤ رخ لـذلـك اليوم . . . قبل أو بعد . . . ففى ذلك اليوم دخلت ومخرجى إلى المدير . . . المكتب مزحوم كدكان حلاق كل ينتظر دوره . . . . وهو لسانه يتحرك أمرا ونهيا كحركة مقص الحلاق يقطع ولا يصل . . . ما كان يحدث أمامى يذكرنى بقريتى . . . . الرجل الكبير لا يجلس ورجل يقف أمامـه . . ما دام صـار رجلا . . .

هنا القامات الطويلة كمن تعمد اختيارهم أقرب ما يكـون طولا ووزنـا لبعضهم البعض . . . هنـا القـامـات الـطويلة للرجـال منحنيـة . . لا لم

يكونوا . . بل تحولوا إلى أطفال . . إلى تلامذة لم تحفظ النصوص . . تتأتىء وتتلعثم ــ ووجدت المعمار البشرى الذى هو مخرجى يتصدع ــ وقف أمام مكتبة محنى الظهر . . تتحرك مقلتاه اللتان كانتا واثقتين منذ لحظة داخل عينيه فى قلق وتردد . . . ضاعت نظراته المحددة . . صارتا تعطيان الإحساس بالرمادية المراوغة فعندما يرفع يده يقابلها بنظراته . . يلتفت يمنة فيلتفت معه ــ خيل إلى أنه تحول إلى عروس فى مسرح للعرائس تحركه خيوط خفية يمسك بها المدير . . . وبدا لى صغيرا كأنه يلبس بنطلون شورت ويمسك بين شفتيه بعناد بزازة فتخرج كلماته ممسكة بخناق بعضها . . تخرج مدمجة ببعضها ملتصقة بشفتيه ولعابه فلم أفهم شيئا . . هممت أن أصيح اجلس . . ولكنى وجدت نفسى أنظر إليه صامتة . . لم يكن تشفيا ولا فرحا داخليا ولكنه شعور ممتزج بالحزن وخيبة الأمل . . .

● ● ●

انتهت الأوراق وخرج البعض ومع ذلك يأبى السيد المدير أن يرفع عينيه المبهمتين فأدقق أنا الأخرى فيما ينظر إليه كانت نملة تسير بسرعة فائقة . . والسيد المدير يحاصرها بعيونه . . وفجأة أوقع عينيه علينا كلنا ، فابتلع مخرجى باقى لسانه وبدأ يتلوى وأخيرا اهتدى إلى أن يتقدم نحوه خطوتين مترددتين وفقط . . وينبت فى داخلى إحساس . . هذا إنسان لا يخيف وكم كنت ساذجة عندما كنت أسيرة لتلك المخاوف . . لم يعد ذلك القناص الذى يتربص بالفريسة . . هو الآن فريسة لمخاوفه من المدير . . . فريسة لطموحاته الصغيرة التافهة . . . أن يرضى عنه . . أن يكتب كلمة فى صالحه . . وذابت توجساتى وقلقى . . . لم يعد فيه ما يخيف . . . وظللت أكرر لم يعد فيه

ما يخيف بينى وبين نفسى وأنا أتأمله كأنما أريد أن أقنع نفسى بهذه الحقيقة التى تبدت لى فجأة كالاكتشاف . . وكانت تلك اللحظات بداية إحساسى براحة عميقة شملت روحى القلقة . . . تعرفى الحقيقة عليه . . ووجدت نفسى أطل على أعماقه من الداخل فأرى الأرنب المذعور كما رأيت من قبل الذئب المتخفى وراء الحنكة والشفقة والرغبة فى العطاء . . وبالرغم من كل ذلك ظل جزء من أعماقى غير راض . . عدم الرضا النابع من رفضنى بأن أرى شخصا يتعرى أمامى . . كل عورات نفسه متبدية على الملأ بغير ستار . . حتى لقد شعرت بالخجل من أجله . . . . ذلك الخجل الذى دفعنى لأن أتساءل كيف له أن يعمل معى بعد ذلك ؟

● ● ●

وكإجابة على تساؤلاتى ودهشتى واكتشافى دعـوته للجلوس ، فنـظر إلى وواصل انحناءاته حتى ظننت أنه لم يسمعنى ، فكررت النداء عليه ، وألقى على المدير نظرة جانبية من خلف نظارته المعلقة على طرف أنفه . . . نظراته له نظرات محايدة . . . لم يكن يأمره بالسكوت ولا بمواصلة الكلام . . . وهو لا يكف عن :

أصلى ياأفندم . . فى الواقع . . . فى الحقيقة . .

وسقطت ورقة فتسارعت الأيدى تمتد والهامات تنحنى ليسبق كل الآخر ليحظى بشرف تقديم ما وقع .

وفجأة انفض السامر ، وخلت الحجرة إلا من ثلاثتنا وهو على مكتبة ينظر أمامه فى إمعان . . . ظننته يفكـر فى شىء . . . أمعنت النظر . . . كـانت

نفس النملة الأولى وقد أمسك بالقلم يقربه منها . . . ومخرجى مزروع أمامه ينتظر الاذن بالكلام . . . يخشى أن يقطع حبل أفكاره وكأنه لم ير النملة التى تشغله . . . . ولم أستطع البقاء وخرجت . . لم أتكلم . . لم أستأذن ولم أسلم .

● ● ●

بدأت عجلة العمل تستغرقنى . . . كان برنامجنا عن تقديم الشخصيات التى تمثل عزتنا وحضارتنا بأسرها . . رباه كان العمل فعلى قدر كبر وقدم هذه الحضارة كان عدد الرجال . . كل واحد أمة بأسرها . . والأمم تعطى وتأخذ . . فكان عطاء كل شخصية ينبوعا متدفقا دون نضوب . . . ما أن أفتح فمى بكلمة إلا وأجدنى غارقة فى قصص الصمود والعطاء والحب . . . كان جيلا أحب فخلق وأنجب . . . جيلا أسطوريا فى انسانيه فكان إن لم ينجب يتبنى ، وفى نفس الوقت يستطيع أن يحب ما تبناه بكل الصدق . . . الا أن هذه الشخصيات بلا استثناء لفرط إحساسها بذاتها ورغبتها فى أن تبدو بالصورة التى يرضى عنها المشاهدون وحتى لا تكون أقل مما هى عليه فى الحقيقة . كان هذا الواقع يدفعهم إلى الحرص الشديد والتدقيق فى اختيار كلماتهم ، وحتى حركات أيديهم ونظراتهم لعلمهم أن الكاميرا تكشف وتعرى فينتابهم خوف عجيب وتجف حلوقهم وتلتصق ألسنتهم بأشداقهم كأنهم أمام اختبار . . وهم الأساتذة ! ويتصبب العرق من الجباه وتهتز أقدامهم فى رعشة يحاولون أن يجعلوها إيقاعا يبعث الطمأنينة . . . فكان أساتذة الجامعات حين يجدون أنفسهم بعد إشارة المخرج لهم بالبدء يتكلمون

كأنهم فى محاضرة لا يريدون أن يقطعها أى استفسار ، فكنا نتفق على إشارة من يدى لأنبهه إلى أننى سأتكلم . . . إلا أن هذا الاتفـاق كان يحبط أمـام سمك نظارته ، فإشـارتى المتفق عليها لا يلحـظها !! وتعلمت الصمت فى حضـرة العلماء ، فـلا يجـوز قـطع تلك السلسلة الـرائعـة من الكلمـات أو الأحداث أو المواقف ، فهم يتكلمـون بطريقـة أبحاثهم بنفس التـدرج والدقة والمنطقية فى الانتقال من موضوع إلى آخر .

وكان اللقاء بالأدباء يسمح بالأكثار من الأسئلة إلا أنهم يشعرونك باليأس من كل خاطرة يستطيعون أن يأخذوها ليصنعوا منها قصة تلو الأخرى بنفس السلاسة التى يكتبون بها . . . فليس هناك أسباب منطقية لتتحول الشخصية عندهم من أقصى الشر إلى أقصى الخير . . من الحدود المتطرفة للامبالاة إلى قمة التفانى والاهتمام . . . فأنا معهم فى حلم يطول ويطول . . . ويشير لى مساعد المخرج بأن الوقت انتهى ، وأن الكاميرات لا تصور ، ولكنى لا أقوى على ايقاظهم من أحلامهم فيظلون يحكون حبهم للعالم فى قصـة وعشقهم للكلمة فى أخرى ، وعن ملهمات العقاد الأحياء إلى الآن ومن رحل منهن . . وأنا أعلو وأهبط معهم كأننا فى معبد فسيح أبيض وليس استوديو للتصويـر والعمل والمصورون يحيطون بنا من كل جانب . . . أى عـطاء لديهم وأى صبر ! ؟

إلا أن عين الكاميرا اليقظة دائما لا يحلو لها أن تغفو الا فى حضرة أكبـر الضيوف سنا وأكثرهم رصيدا من الانتاج . يحلو لها أن تنام ويهبط المخرج من حجرة المراقبة وتفتح الأبـواب ويسود الهـرج والمرج فمنهم من يلف حـول الكاميرا كأنه يحج يستطلع أمرها أو يرجوها الصحوة رجاء . . . ولما كان للنوم

سلطان فهيهات أن تستجيب عين الكاميرا . . والدقائق تمر بالعشرات والانفاس لاهثة . . . وضيفى يسأل بتأدب شديد عن سبب توقف التسجيل ، وهو لا يدرى أننى أكثر منه جهلا بهذه الأمور الفنية ، ولو أننى بت عن يقين أن الأمور الفنية أبعد ما تكون عن هذا العطل ، لأن السبب يكمن فى عدم انجاز عملية الصيانة إلا فى حضرة الضيف . . . وبعد أن يتأكدوا تماما أنه وصل وأنه مستعد للكلام ، وأن الفكرة جلية واضحة فى ذهنه يبدأ الانقطاع الذى نسميه أمرا فنيا . . . فأقوم من مكانى ألقى الأوراق من يدى وأتجه إلى المخرج أسأل :

ـ ما الأمر ؟

اشغلى الضيف . . . تحدثى معه .

وكانت هذه الخاصية من أهم الصفات التى تعلمتها . . . أن أشغل الضيف . . . أن أتكلم معه فى الجو . . فى الحياة . . عن رأيه . . فى وفى أحيانا فى الحب . . . ويبدو أن من يأتى إلينا ضيفا يكون مجهزا نفسيا ليتكلم ويتكلم . . . الأمر الذى كان يخفف من أرباع الساعات الطويلة فى انتظار الإذن بالعمل الذى لا يأتى إلا بعد وصول المهندس أو الآنسة المهندسة . . . تفتح مقدمة الكاميرا تنبش فى أجزاء من رأسها وبعد ثوان يؤذن لنا بالعمل . . . وأفاجأ بضيفى يسأل على استحياء أن أذكره بما قاله كإجابة عن سؤالى السابق . . . وتصعب على الإجابة ، ويحاول أن يتذكر ، ولكن محاولاته تضيع أدراج الرياح . . وفى كل مرة كان من يفلح فى أن يذكرنا بما قاله هو أصغر عامل فى الاستوديو . . . أحد أولئك الذين يحركون الميكرفون

أو عمال نقل الاكسسوار . . . فهو الشخص الوحيد الذى يمكنه أن ينتحى جانبا غير مشغول بشىء ليسمع ، وكأن كل ما قاله الضيف قد انطبع حرفيا فى عقله فنتلقفه لنسمع منه ما حفظ . . أحس أمامه مسئولية كل كلمة . . مسئولية جهاز بأكمله . . فكل الحاضرين حتى ولو كانوا من أقرب أقرباء الضيف فى رهبة التسجيل ومتابعة تقاسيم وجهه الضيف ينسون ما قاله ، وعلى أحسن تقدير يتذكرون لعثمة له أولى لينبهونى إليها . . . أما جوهر الكلام فلم يكن يتذكره إلا هذا القابع فى أحد الأركان . . يعطينا جانبا من وجهه أو كل ظهره ولكن كله آذان . . وتعلمت من ذلك الصغير ألا يشغلنى شىء عن فهم كلام محدثى . . . وإذا قدر على أن أنسى أحد ضيوفى فأنا لن أنسى ذلك الأديب الكبير الرائد حين مل وتعب من غفوة الكاميرات فانحدرت على خده الشيخ قطرات من الدموع وهو يردد بصوت واهن !

ــ ياابنتى لقد تعبت . . اننى أجزاخانة تمشى على قدمين . . . وقبل أن أبتلع كلماته كان المخرج يصرخ باعطاء اشارة البدء . . . وتكلم وخيل إلى أن كلماته معاتبة !! فعقله تعب من طول الانتظار تحت الأضواء الساخنة وكان يردد أن يمصر العقول الكثيرة ولكن الإجهاد يمحو كل ما فيها ولا يبقى إلا الفتات . . فماذا تصرين على أخذ الفتات . . . أعدك بيوم آخر . . . سأعطيك أحسن ما لدى من خبرة وذكريات . . . أعدك ياابنتى .

ولكن كان ينبغى للتسجيل أن يستمر لأن الكاميرات وقد أصبحت فى كامل صحوتها تأبى أن تتوقف والعاملون خلف الكاميرات كلهم يشدهم الفضول إلى سماع ما يقول . . وقبل أن يمضى يومان طالعتنا الصحف بوفاة ذلك الأديب الرائد وبقيت كلماته وصوته المتعب مكسبا للتليفزيون .

الشفخانة تعبير أسمعه لأول مرة فى التليفزيون :

ـ هيا نذهب للشفخانة . . خطوتان ونجد أنفسنا فى الشفخانة . . . سرت أتبع خطوات المخرج ، وانحشرنا فى باب ٢ ، الطريق ملىء بالبرك ، الرصيف تصطف عليه عربات الفيديو المتنقلة وهى عربات للنقل والتصوير الخارجى ، وقلب الشارع غارق فى برك صغيرة من الماء والطين العطن . وأنجح فى الافلات من فتحة لا نتكس بحفرة أخرى ، وأخدع فى بئر لأجدنى الى ركبتى غارقة فى الوحل ، ولم يكن هناك بد من أن أخلع جوربى وأنظف به الحذاء فاجأنى المخرج بأن المكان الذى وصلنا اليه كان خاصا بجمعية الرفق بالحيوان ، ولكن المبنى لقيمته الأثرية والتاريخية الجليلة حول لمكاتب صرف قيمة الأذونات للمتعاملين مع التليفزيون . . !

أول أجر أتسلمه نظير عملى ، الفرحة لم تكن لقيمة المبلغ الذى كان ضئيلا ، ولكن لكونه ثمرة عملى وجهدى .

ـ انسى الآن الوحل وابتسمى . .

هكذا أراد مخرجى أن يخفف عنى . . . وقبل أن أعترض تنبهت إلى الذين يقفون بجوارى فى انتظار دورهم . . . . كانوا رجال الفكر والفن فى بلدى . . . أساتذة الجامعات والأدباء . . فرسان عالم الكلمة . . . كنت منشغلة بهم أرثى لوقفتهم التى لا تليق بهم عندما تسلل إلى أنفى عطر خاص أعرفه ، عطر أعاد لى ذكرى عزيزة على ومشت إليها . . كانت هى الراقصة التى قامت بزفافى ليلة عرسى . كانت مستغرقة فى عد جنيهاتها الكثيرة جدا ، أما طابور المجهدين الكتاب وطائفة المثقفين أولئك الذين يؤثرون شراء كتاب

على شراء حذاء أو قميص ، وينتظرون جنيهاتهم القليلة مقابل برنامج اعتصر فكرهم ودمهم ، فكان تجسيدا حيا لقيمة الراقصة والكلمة ومكانتهما . . كان كل واحد منهم مشغولا أو متشاغلا بقراءة الجريدة التى فى يده ، ورغم ذلك كان المكان بطوابيره وناسه مرهف الأذن والراقصة تراجع نقودها وتعيد احصاءها بصوت مسموع ، كأنما تتعمد ذلك . . أو كأنها تخرج لسانها لهم جميعا ولسان حالها يقول :

ـ ماذا فعلت لكم الثقافة . . . وسهر الليالى وحرق الدم ؟

وأسمع أحد المتعاملين يقول لصديق له وكانا ممن يعملان فى الإعداد المكتوب :

ـ إنها فنانة . . جماهيريا هى تكسب قصب السبق . .

لم أعلق . . فأنا أعلم بوجهة نظره ، هو يتعامل مع ذلك الطابور المجهد من الخارج ، تلامس السطح بالسطح ، بالجلد الخارجى لم يحاول مرة أن يسير معهم خطوة فى الدروب التى يقطعونها سعيا وراء فكرة أو خاطرة ، كان حرفيا مصمتا عنده كانت تسقط نظرية قدرة الإنسان على التأقلم ، وتحضرنى الاستعدادات التى تسبق حضور الراقصة ومراجعة كل كبيرة وصغيرة قبل أن تدق الطبول الإيقاع وتتراقص الأضواء على واحدة ونص . أما هؤلاء فلا استعداد لهم ولا طبول ، حتى الكاميرات لا أحد يهتم بتجهيزها قبل بداية التسجيل ، وأفيق على صوته وهو يقول ؛

ـ ماذا يريدون . . إننا نشهرهم

ولما كنت على يقين بأن العكس هو الصحيح ، فأغلبهم لم يكن ينقصه التليفزيون لينشر فكره وآراءه فى الهواء ، وكان كل من يقبل منهم الظهور فى

برنامجنا دائما وأبدا لعلمه بخطورة تلك الأداة التى تستقبلها كل البيوت وتستضيف المتحدثين إليهم . وهم بحكم عملهم يدركون مدى تأثير الصوت مع الصورة . هم يريدون من خلال هذه الأداة السحرية أن يسدوا الفجوات التى بينهم وبين الآخرين ، يقيموا الجسور ويمدوا حبال الود لينيروا الطريق أمام الآخرين ، يأخذونهم إلى دنياهم وحلمهم لغدهم هدفهم نشر فكرة لصالح حبهم الكبير . وكم كان هذا الحب مكلفا . كانوا يجبون بعقولهم المتقدة بنبض دمائهم ، بشرايينهم المريضة والصحيحة ، فحين تدور الكاميرات كان كل واحد منهم يصوب عينيه فى الفراغ ، وتتقلب صفحات الكتاب ، كتاب فكرة صفحة صفحة وكأنه يقرأ سطرا سطرا . . يمسح نظارته أحيانا حين تخونه كلمة لم يستطع رؤيتها ، فيدقق فيها وأسمع نبضه بوضوح . . . وهو يتكلم ودرجة التوتر العقلى عالية جدا فأسمعها كدقات القلب ، وحين يعلو الصوت ويعلو ، يصرخ المخرج :

ـ استوب . . . استوب

ويقول مرة أخرى :

ـ فيه صوت دقات . . . حد منكم شايل منبه جنب الميكرفون ؟

كنت أضحك وأطلب لضيفى كوب ماء ، فهو غير مدرك أن الدق آت من نبض عقله وهو يتذكر ويجهد ذهنه ويتجسد حبه أمامه وتختلط عليه الرؤى ويمتزج الحلم بالواقع فيشخص بناظريه كأنه يراه وهو يؤكد أن الفكر العلمى الذى قال عنه ونادى به والتى وصل إليه على وشك التحقق ، ويقطع المخرج استرسالنا صارخا :

ـ استوب . . استوب . . هو سيادة الأستاذ بيبص على إيه . . . فيه قطط فى الاستوديو ؟

الكلمات والصياح وصوت المخرج **الأجش** يمزق الحلم حلم عمره كله ، حلم الحب الذى كان يعيشه ويجتره من خلال كلمات الحلم بالوطن وهو يملك خلاصه ويستعيد أقداره ، وصار لى مع مخرجى من كثرة التعامل لغة صامتة ، كنت أسميها اللغة الثالثة تماما كالعالم **الثالث** ، لغة لا يفهمها سوانا ، ألف باء هذه اللغة تقول ، حين يبدأ ضيفنا وكأن أبحاثه جسدت واقعا يراه ويتتبع تفاصيله ، ظلاله وأضواءه ، أقلب **الصفحات** التى أمامى ، أخطط بالقلم الذى بيدى ، أفتح وأغمض عيونى **بالأهداب** التى أشتريتها فأعطى الكاميرا المبرر لتتحول إلى أنا ، وفى بعض **الأحيان** كنت أواجه بعاصفة من الاستنكار على هذا القطع ، وكنت أصمت وأمعن فى الابتسام وكأن الكلام الموجه إلى ليس أكثر من طريقة مبتكرة للإعجاب بالبرنامج ، وحين أخلو إلى نفسى كنت أحس مرارة اللغة التى بينى وبين مخرجى تلك اللغة الثالثة المتفق عليها بيننا ، والتى كانت أداتنا السرية . . **كالسد** توقف تدفق المتحدث كما توقف عفوية عباراته واسترساله ، كنا بتلك **اللغة** نميت حيوية الحديث ونوقف نبضه ، كنت أعلم أننا نعزل أولئك **المشاهدين** فى كل مكان من أن يشعروا بذلك النبض ، فتطمس الآمال **والأحلام** التى يحاول إحياءها الضيف . . ولست أدرى لم تذكرت السيرك **وحيواناته** وما يبذله المدرب ليخرج الأسد والدب عن طبيعته . ولا نزال وراء محدثنا بالأستوب وبتحويل الكاميرا كأننا نروضه نجمده . . نجزىء أفكاره كما نجزىء شخصيته وتماسكه . وتظل الراقصة هى التى تتدفق حركتها **إيقاعا** وانطلاقا . . . الجسد بمحدوديته يتحول إلى شىء لا محدود من الحس **والغريزة** والحلم والرغبة فى الإشباع ، أما الفكر وانطلاقه وتجواله اللا محدود فى عوالم ودنا نحبسه نحده ونضغطه فى قمقم الحوار الممسوخ والمسار المحدود . لا ينبغى على المتحدث أن ينفعل بفكره

فيشيح بيديه أو يمط شفتيه استنكارا ، عليه أن يكون مانيكانا فى الرقة والتملوك وخروج اللفظ بحساب من شفتيه ، نريد المتحدثين تماثيل فى متحف للشمع ، ركبت فيها آلات تسجيل !!

لماذا كل ما هو إنسانى من حب وصدق وكفاح . . الدراما الطبيعية غير المفتعلة ، لماذا نرفضها نطمسها نمسخها هنا لنصنع قالبا جافا للعالم . . . والقالب الإنسانى لا يكون إلا لغيره . وكيف للناس أن تحب طريق العلم وطريق الإيمان والصدق من قالب لتمثال شمعى بارد !

● ● ●

استلقيت على السرير بجوار صغيرتى التى ترقد فى سلام أتأمل وجهها الملائكى . . وتدور خواطر كثيرة بى . . أتذكر خالد . . أنفها تشبه أنفه ، أما عيناها فلجدتها . . ومنى أخذت اتساع الجبهة حتى منبت شعرها . ما كنت أحسب أنى سأستطيع مواجهة الحياة معها منفردة ، كان عملى خلاصا من مخاوفى ووحدتى وعجزى ، كنت أشعر بنفسى قوية قادرة على مواجهة كل شىء ، طالما أننى قادرة على أن أفكر أن أدير تلك الماكينة التى تقبع أعلى كتفى ، وشعرت بقوة أكثر عندما ذابت مخاوفى من مخرجى ، عادت إلى أعماقى أشياء كانت هاربة منى ، انخراطى فى عمل وامتزاجى به أخرجانى من بئر وحدتى العميقة وأعادت صنعى من جديد وبرنامجى الثقافى أمدنى بطاقات ما كنت أحس فى يوم أننى أمتلكها ، كما اضطرنى ذلك لأن أقرأ . . وأحاول أن أفهم . . وأصعد إلى مشارف تلك القمم من الفكر التى كنت مضطرة لأن أناقشها ، وبقدر ما كانت وحدتى تضيق بى وأضيق بها . . بقدر

ما شعرت بانفتاح الدنيا أمامى ، وامتزجت بالعمل حتى الذوبان فيه ، كان هروبا . . كان بعدا عن الملل . . كان تصديا للضعف والوحدة ، كان كل ذلك ولم يكن أى شىء من كل ذلك ، ولست أدرى لم تذكرت باطن أقدام الفلاحين فى قريتى ، أقدام حافية تعرضت لكل عوامل التعرية امتزجت مع التراب والطين ، وتشققت من المياه والشمس الحارقة ، حتى تُداخل لحم القدم مع الطين فتجاورتا وتآلفتا . . أخذ كل من الآخر وأعطى حتى صارا كيانا واحدا .

ولم يمنع التصاقى بذلك المبنى الشاهق والذى يبدو براقا ومهيبا من الخارج من أن أرى أحشاءه من أن أشم رائحة البصل والزيت الحار فى الفول المدمس وسندوتشات الطعمية ولا أكوام الزبالة ، وسوء دورات المياه وقذاراتها ، البذلة أنيقة والكرافت يجن والملابس الداخلية مليئة بالثقوب ، البوفية لعنة من اللعنات فتتملكنا الغيرة من بعض دور الصحف كأجهزة أعلام مثلنا ، ولكن النظافة والتقدم التكنولوجى المذهل والخدمة التى تقدمها ، الرقى الذى تمثله اطلاله على المستقبل .

وعدت من جولتى وأفكارى لأحكم الغطاء على صغيرتى ، وتذكرت زيارة ذلك المسئول لنا . . قبل حضوره بأيام بدأت الاستعدادات من صيانة الكاميرات وباعداد ديكورات خاصة ، الحفلطة المتكلفة . . ويعجب المسئول بالعمل السائر كالساعة الدقاقة ، لا أعطال فنية ولا ذباب عشرى ، ولا شىء من كل ما يجرى يوميا ــ العمل منضبط عندكم تماما ــ إعجابى وتقديرى للقائمين به . لقد وضح لى الآن مدى تجنى الذين يشكون منكم .

وأهمس لنفسى هذه الكاميرات عجوز تهالكت ، وكما يقول المحاسبون رصيدها الدفترى والفعلى صفر . هل يعلم أن هذه الكاميرات عمل عليها عشرة مهندسى صيانة وضبطت مؤقتا لكى نجتاز لقاءه وينتهى التسجيل ؟

وقبل أن يتلقفه موظفو العلاقات العامة يواجه جمعا من العاملين وتسرى بينهم بعض الهمهمات ، فالمطالب كثيرة والشكاوى لا حصر لها وكلها متناقضة حينا ومتجانسة أيضا ، ويظل مطلب ملح كاد أن يجمعوا عليه كافيتريا متقدمة مثل التى فى إحدى دور الصحف وتحسين الخدمات لمكان ينبغى أن يليق بآدميين .

وسار أمامى وأنا مستلقية على السرير أبحلق فى الفراغ طابور طويل من العاملين . . النجارون والمبيضون وعمال الاستوديو والمساعدون والمصورون والمهندسون بتخصصاتهم المختلفة وكل أولئك المجهولون والذين يعملون فى صمت . . أولئك الذين تظهر أسماؤهم فى المقدمات والخواتيم لأقل من الثانية ، أسماء لكثرتها وسرعة تواليها لا تقرأ ولا تعنى حتى شيئا . . وجودها هو العدم ، وحتى أولئك الذين لا يظهر لهم اسم ولا ذكر تماما كالملايين الذين بنوا الأهرامات ومضوا ولم يبق إلا خوفو وخفرع ومنقرع . . هكذا دائما المنكورون والمنسيون . . !

وتذكرت حجرة الماكياج . . فيها يعطوننا كل ما نريد . . . العطر والحنان والحمرة للخدود الباهتة . . احتياجات صغيرة ولكنها جوهرية . . لمسات قليلة تحول الوجوه المتعبة إلى وجوه تتدفق حيوية وجمالا ، ثم يطلبون على استحياء وبما يشبه الهمس أن تركب لهم أجهزة يكونون بها على اتصال مباشر

فى نفس لحظة التسجيل بالوجوه التى ستظهر على الشاشة حتى يمكنهم إبداء ملاحظاتهم فى التو واللحظة وحتى لا يتعرض المذيعون ومقدمو البرامج للوقوع فى الخطأ إلى أن يصلوا بجهودهم الشخصية إلى معرفة الصواب . هذا المكان شأنه شأن مصر . . . العطاء الذى بلا مقابل . . . ولكن هل يلتفت إلى أى عطاء بلا ثمن ؟

وأذكر خروجى يومها من حجرة الماكياج وأنا أعد إحداهن أن أحضر لها ديوانى عن فلسطين اللعبة والحقيقة اللعبة التى لا يتلفت إليها لأنها عطاء بلا مقابل نوع من التسلية فالمدفع لايبنى ولا يحطم لأنه لعبة ، والحقيقة ما زالنا نبحث عنها لأنها الحقيقة رغم فجيعتها وسوادها ، ولكنها الحقيقة نبحث عنها ويبحثون عنها معى ، وهكذا تطلب إحداهن الديوان ، وأجزم أنه لولا كلمة الحقيقة ما التفتت للعبة .

وبدأ جسدى القلق يستجيب لنعومة الفراش . تفككت الأوصال فى كسل . . . ووددت لو أن مربية ابنتى تترك قليلا رعايتها الشديدة لسلوى وتستطيع أن تدلك لى عنقى لأنام .

ابنتى تقضم ثديى بقوة جوع الدنيا يملؤها ولا تكتفى بل تلعب بأصابعها الصغيرة فى عقدى وأنا أنظر فى ساعتى إلى أكثر من ثلث ساعة وهى تمتصنى . . وبعد الشبه بينها وبين الكاميرا التى تنتظرنى . . تتقارب جدا كلتاهما . . تعملان بنشاط فى أحرج الأوقات . . فأبعد صدرى عنها ليزداد صراخها وسخونة اللبن الحانى فى صدرى . . يزمجر هو الآخر فأرضخ لها ، باق دقائق والطريق أمامى طويل لأصل للاستوديو ، فالضيف فى انتظارى ،

وأنا لم أقرأ حتى ورقاتى . . أهدهدها أقبلها أنسلخ عنها وأدقق النـظر إليها فتدقق النظر إلى . . ولا يطاوعنى قلبى فأقترب منها أقبلها لمرة أخيرة ، فتنفض بأصابعها البيضاء على عقدى . . ولا تهدأ إلا وحباته تملأ أرض الحجرة . . فأقدم لها الباقى من حول رقبتى واندفع من الباب ، وهنـاك فى الاستوديـو انفرط ما تبقى من عقد أعصابى ، فقد ألغى المخرج التسجيـل . وقبل أن أعرض حججى وأحلف بحياة ابنتى ، كان ولأول مرة يضع يده على كتفى . انتفض جسدى . . فرفع يده كالملسوع . . وهو يشير على بالصمت ، وتنحى بى فى ركن بعيد بالاستوديو ، وهمس كمن يفضى بسر خطير :

ــ كنا على وشك الضياع . .

ــ لماذا ؟

ــ الضيف . . ضيف الحلقة . . اكشفت فى آخر لحظة أن له ميول . .

ــ ميول أية ميول ؟

ــ ميول يسارية ياست !

وقلت لنفسى حتى أنت أيضا تنضم لذلك الموكب الخبيث ، أن معلوماتى ومعرفتى بك تزداد يوما بعد يوم ، فأنت اذن من الصكاكين الذى يصمون الناس ألقابا ونعوتا ، إنهم كما علمت وخبرت من خلال ملاحظاتى ومعايشتى اليومية لهذه الفئة التى أعطت لنفسها الحق أن تصم الناس كما يحلو لها ، هذا أحمر فاقع وذاك بمبى مسخسخ . أما الرجل صاحب الزبيبة أعلى الجبهة فهو يمينى متزمت ، والثالث مهووس . هؤلاء جبناء يخافون من الشباب تدفقه . . . حماسه . . علمه الحديث وإخلاصه ، والخلاص من هؤلاء لا يكون إلا بتلويثهم بإطلاق الشائعات والألوان عليهم . . هذه الفئة عليها أن تكون

فى حالة اتهام مستمر كنوع من الدفاع المستمر عن أنفسهم لكيلا يجرؤ أحد على الهجوم عليهم . . هكذا كانوا يظنون وتنبهت على صوته الأجش يواصل حديثه :

ــ مش مهم البرنامج الأسبوع ده .

ظن صمتى وشرودى أسفا على تأجيل التسجيل . . يظن ، كما يريد أنا كذلك كنت أظنه ذئبا فقط ، يهتم بالقنص والمتعة الخالصة . ولم أكن أعلم أن كثيرا من الأشياء مترابطة . . وأنه يندرج تحت ذلك الصنف من ذوى القدرة الخاصة على معرفة اتجاهات الريح . . من أين تهب وإلى أين المسار . . . ودائما لها أقدامها فى كل مكان وكل اتجاه . . المواقع البديلة والتمويهات الهيكلية كأنما هم فى معركة الكسب دائماً لابد أن يكون حليفهم . هم رجال هذا العصر ، والعصر السابق ، والعصر القادم . . رجال وخدمة كل العصور ، ولأنهم دائما البادئون بالهجوم . . والمبادرون بوصم الآخرين . . . فكانوا دائما بمنأى عن أى اتهام أو أية صفة ، إنهم كالماء فى جميع صفاته . . لا لون . . ولا طعم . . لا رائحة ، أنهم يتخذون نفس شكل الأناء الذى يصبون فيه . . هيه وماذا وراءك أيضا يامخرجى العزيز ؟ ، ما أبعد اليوم عن الأمس عندما لقيتك مصادفة ودفعتنى ظروفى لأن أخرج وأن أعمل عن طريقك . . كنت تبدو لى ساحرا عملاقا ، والآن تتكامل حلقات المعرفة كما يتأكد لى استنتاجى . . بأن هذه الحرب لا تشن إلا على الشباب ، أولئك الذين يحاولون العمل معنا .

وكان حتما على أن ألزم الصمت . . هكذا تعلمت لأن بدايتى كانت مع العلماء . . مع تلك الرؤوس المضيئة المثقلة بالعلم والتجربة ، فقد علمونى

أن أكون مستمعة جيدة . . يعز على أن أقطع أفكارهم فى حضرتهم . . أحس نـوعا من السمـو . . من العلو . . إلى أن وصلت إلى معـرفـة الإحسـاس بالصوفية . . فى حضرة العلماء الغارقين بأفكارهم الذائبين وجـدا فى حلم عمرهم وأنا بكلمات رقيقة حالمة وأسئلة صغيرة متتابعة أمتص معرفتهم ، أستولى على نتاج جهدهم فى جلسة واحدة .

يسارى كانت هذه الكلمة تذكرنى بما كان يحدث قبل أن ننتهى من مواضع الإرهاب المنتشرة على جسد قاهرى ، وكـأنه كتلة دم متجمـدة تهدد قلبهـا بالتوقف ، فتخلصنا منه ، أيام كان يكفى أن يخط مجهول حاقد على أحد كلمة نما إلى علمنا حتى يمحى اسم من نما إلى علمهم ، واستبدلت تلك الكلمة بنما إلى علمهم أن الشاب فلان يسارى الاتجاه أو يمينى الميول ولكن هل إذا أعطينا لهم فرصة التحدث للملايين فسنفاجأ أنهم فى غمضة عين هكذا وبين يوم وليلة واحـدة . . استطاعـوا أن يحولـوا المشاهـدين إلى مؤمنين بـأفكارهم المتطرفة ؟ مستحيل . . فنحن نعرف بأن الشيوعية من حيث نشأتها جاءت فى الأصل كجواب على الأوضاع المتردية فى المجتمع الصناعى الأوربى ، ولكنها كنظرية لم تقتصر على قطر ، بل توجهت لكل العالم مدعية أن لديها حلا شاملا لمشاكله . . وادعت أن هذا الحل قدر محتم ستصل إليه البشرية ، لأنه النتيجة الحتمية لطبيعة التطور المسـير بقوة قـانون اجتمـاعى ثابت . . ربـاه ونحن كمجتمع ضمن المجتمعات المتخلفة التى حاولت وتحاول الشيوعية أن تغزوها مستغلة ضعف الفكر العربى نفسه ، محاولة أن تملأ الفراغ . . إذن فهى لم تحاول الدخول عن طريق الفكر بل عن طريق النسخ والنقل بكل تناقضاته عن طريق التزييف ، وأنى للزيف أن يبقى .

مصابيح الإضاءة القوية تضبط فى الزوايا ، أعتدل فى جلستى أسوى ملابسى ، سقط ظل الميكروفون على وجهى وجاء أحدهم ليعده ، ولا أدرى ما الذى حدث حتى انفلت ذلك الميكروفون من بين أصابعه ليسقط فوق رأسى وليغرق فى دمى الذى تفجر وانبثق كالينبوع . . ينقرش ثوبى . . دمى حار ولزج . . شعرت به عند رقبتى . . للوهلة الأولى شعرت بالخبطة ، وإن لم أشعر بعد ذلك بأى ألم . . ولكن دوارا عنيفا لفنى فى طياته كالإعصار بعد فترة نتيجة لاستمرار ذلك التدفق الذى لم تمنعه الأيدى المحيطة بى . . ولا المناديل التى أحاطت برأسى كضمادة لحين حضور الطبيب . . جاءتنى كلماتهم وأنا على أعتاب الغيبوبة ، كلمات الجزع والخوف على . . والسخط على العامل الصغير الذى وقع منه الميكروفون على رأسى . . رجوتهم باشارات منى وهمهمات أن يتركوه فلم يكن يقصد . .

وكانت أول أجازة اجبارية أحصل عليها ، ولم أكن أعلم أن رقم هاتفى يعرفه هذا العدد الكبير من الزميلات والزملاء .

الجرس لا يكف عن الرنين ، الكل يهتم بى وأسبح بعقلى هناك فى البعيد . . حين فقدت خالد . . ونسينى أهلى وأقاربى ، نسونى إلى الدرجة التى أغلقوا بها الباب على بعد أن كوموا أحشاء الشقة . . ولم يسألوا عن صاحبتها ، وكدت أشعر بالسعادة لمرضى الذى جعل كل هذه القلوب تحيط بى . . مجاملات اجتماعية . . كلمات رقيقة بعضها لا يحمل دلالة ودفء الصدق ، لايهم أننا نكون فى لهفة إلى تلك الكلمات فى لحظات كثيرة من حياتنا . . وخاصة عندما تكون حياتنا خالية من الشريك الآخر الذى يحنو ويقلق بالانتظار ، وأتذكر خالد . . وأتذكر أقاربى الذين لم أعد أراهم إلا فى

مناسبات تحتم اللقاء . . أعرف أنهم كانوا لا يزالون يحسدوننى على المعاش وأثاث الشقة . . وأخيرا على عملى ، فلم أعد أراهم ولا أريد .

المرض فرصة مواتية لأن ألملم نفسى كما ألملم ثوبى على جسدى ، انفلت من أسر ذكرياتى مع خالد . . حاولت استعادتها . . لم تسقط أحداثها . . ولكن تلك الحرارة تبددت مع امتداد الزمن وتلك الأيام المحزنة . . والحزن الطاغى ذاب كله مع الأيام والأحداث وإيقاع العمل ولكن تبقى هناك حقائق مهما كان تجاهلنا الواعى لها إلا أنها تظل تعمل فى أعماقنا خفية ورغما عن إرادتنا .

مفروغ منه أننى ما زلت شابه ، وأننى مرغوبة من كثيرين . . . أرى التودد فى نظراتهم كما ألمسه فى سلوكهم إزائى . . فى اهتماماتهم وفى تطوع أكثر من واحد لأن يؤدى لى خدمة . . أية خدمة حتى ولو لم أطلبه ، ى الثناء على ملابسى وعطرى ، وكم كان هذا يستفزنى . . كأن الملابس والعطور صرختا نداء منى كأنثى إلى الرجل ، لم أكن أتعطر عامدة لأسمع هذه العبارات لأنه لم يكن شىء من ذلك يدير رأسى ، فقد كانت كلمات أبى لى منذ كنت صغيرة توقظنى ، تقف كالتميمة تحول دون ذلك السحر والغوانى يغرهن الثناء ، فلم أكن أريد أن أكون غانية ، فقد كنت أعلم أن الجمال عرض زائل ، وأنه ينبغى على أن أجمل روحى . . ذلك الجمال الذى يبقى على الزمن بل تزداد أصالته مع القدم . . لأنه يصبح تراثا يورث إلى جيل بعد جيل . .

فقط ما كان يكربنى هو عجزى أن أجلس إلى أوراقى الخاصة أبثها أشجانى ، خواطرى وأفكارى ، عملى كجمالى وشبابى إلى ذهاب بعد

سنوات ، حتما ستتغير طبيعة عملى ولن أكون ذلك الوجه الذى يدخل البيوت بلا استئذان ، غدا تأتى مذيعات صغيرات أكثر جمالا وشبابا وتقبع نحن جميعا . . كل جيلنا خلف المكاتب منهمكين فى أعمال أخرى أو محالين إلى المعاش بعيدين عن الأضواء والشهرة وحتى عن النقد ولو كان قاسيا . كنت أدرك كل ذلك فأسخر من كلمات الثناء والغزل المكررة الباهتة التى تسمعها كل واحدة منا بالتمام والكمال ، وبقى هو الوحيد بينهم الذى لم يوجه لى كلمة اطراء . . فقد كنت أرقبه من بعيد وهو يختلس نظراته خفية فى ومضات خاطفة . . وشعرت باهتمامه الزائد فى صمت ، لم يحاول التقرب منى ، فقط التعامل فى حدود الزمالة وإذا اقتضت الضرورة ذلك ، استفزازى لم يتحول إلى فعل إزاءه . . فقد لذتُ بالصمت والترقب وإن كنت بدأت أشعر بأن هذا الترقب يضنينى ويحول عدم مبالاتى إلى اهتمام خفى أخذ يعمق بمرور الأيام ، وتساءلتِ ماذا دهانى ، وضبطت نفسى أفكر فيه أكثر من مرة . . طريقة حديثة . . اللازمة التى تعقب كلماته أنت فاهمنى أو أنت فاهمانى تعبيراته وإيمانه بما يقول . . لست أدرى متى تسرب كل ذلك إلى أعماقى ؟ . . شعرت به يتغلغل خفية إلى بؤرة اللاوعى فى إدراكى . . أما سلوكنا إزاء بعض إذا ما حتمت الظروف أن نتعامل مباشرة فكان يثير فى أعماقى الابتسام والحيرة ، كأن شيئا ساذجا . . كانت تصرفاتنا تعود بى القهقرى إلى مراحل من العمر مررت بها من قبل . . ذلك التفتح الأول لمعرفة الجنس الآخر شكوكا ومخاوف ورغبات مبهمة ومشاعر يلفها الغموض والفضول معا ، لم أكن أراه كثيرا فيما كان يفرق بيننا فى العمل أكثر مما كان يجمعنا . . وظل ذلك النسيج الواهن من العلاقة المتقطعة والتى تلعب فيها الظروف والصدف دورا

ينمو ، ولكنه ظل فى إطاره ذلك ولم يتعده ، فلم تكن قد تخمرت فى أعماقى أية نوايا تجاهه ، بل لم يصعد الأمر إلى مستوى الوعى لمناقشة الأمر بينى وبين نفسى ، أو أننى كنت أتجنب أية تداعيات يمكن أن تنسج على أى تصرف من تصرفاتى ، كما اننى ما زلت برغم ادعائى بأننى متحررة عن كثيرات غيرى . . ظللت تلك المرأة الشرقية التى يقبع فى أعماقى كل تراث جدتى من تقاليد وأعراف . . . ثيابى عطورى عقودى وزينتى . . لم يستطع كل ذلك أن يزيح البرقع واليشمك من أعماق أحاسيسى . . وهو كما علمت متزوج فأية أبواب أفتحها للريح لتعصف بكل شىء . . استقرارى وابنتى ومشات الأشياء ، أدرت ظهرى وهربت من كل ذلك إلى عملى وابنتى وقراءاتى ، ولا أستطيع أن أدعى أننى كنت أهرب وفاء لذكرى خالد ، فبالرغم من حبى له إلا أن تغلغل موته فى أعماقى أمات أشياء كثيرة فى داخلى ، وكم تذكرت كلمات كنت قرأتها فى رواية الدون الهادىء : إن المرأة كالقطة تستنيم لليد الحانية التى تربت عليها . . استنكرت ذلك عندما كنت فتاة فى الجامعة ، وقلت هو اتهام باطل من الرجل لوفاء المرأة . . ولم أكن أعرف من الدنيا شيئا ولم أعان تلك العواطف العميقة والمضطربة والمتناقضة التى تمسك بالأعماق كالإعصار ، ولكن فى ليل وحدتى الطويل والجدران الباردة تفح الصقيع وليلى بلا من أحتمى به . . تؤنسنى أنفاسه الهادئة على الوسادة تبدد قلق الغد والخوف من المجهول . . تبث الطمأنينة فى عروقى وتشع الدفء فى أطراف الباردة ، عندما افتقدت كل ذلك . . . تذكرت كلمات رواية الدون الهادىء وأدركت كم كانت صادقة . . وهأنذى ألاحظ أنه الوحيد الذى لم يتصل بى ليسأل عنى أو ليطمئن على . اتصل بى كثيرون . . الذين يعرفوننى والذين يودون

معرفتى . . ولكنى كنت أشعر بينى وبين نفسى أنه الوحيد الذى يعنينى أن يسأل عنى ، لم يكن هناك شىء محدد بينى وبينه ، شىء ممكن أن أضع يدى عليه ، شىء يربطنى به ، ولكنه إحساس عميق لا يمكن إنكاره . . ذلك الإحساس المبهم الغامض والمجهول الذى ينبعث من أعماق بعيدة فى النفس ، تغلف الوجدان بتلك البطانة الناعمة من المشاعر الشفافة ، توقعت أن ينفرد عن الآخرين بأن يبعث إلى بباقة زهور . ولكن تمر الأيام بى وبمرضى بطيئة مملولة ، لم يكن يؤنسنى فيها إلا صغيرتى ومداعباتها ورغبتى الدفينة أن أراه . . حتى بت أتهم نفسى بالجنون ، كيف ؟ ولماذا ؟ وما الذى يربطنى به . . . ما مستقبلى معه ؟

وقلت الزيارات حتى انعدمت وقرب موعد عودتى للعمل وأصيل ذلك اليوم من أيام الشتاء القارسية ، يوم لن أنساه رن جرس الهاتف ورفعت السماعة ، وسمعت صوتا غريبا لم تألفه أذناى ، ــ ألو. . . . مها هانم

ــ مين عايزها ؟

ــ محسن

ر وكدت أصيح . . محسن . . ! ما كنت أحسب أن دقات قلبى يمكن أن تدق بهذا العنف . . ما الذى حدث لى . . وانبعث من الآلة السوداء الباردة دفء لا أدرى من أين ، ومضت فترة لست أدرى مداها . . هى قصيرة ولكنها بدت لى دهرا ، وخفت أن يغلق الطريق :

ــ أهلا وسهلا ياأستاذ محسن . .

حمدا لله على سلامتك . .

سيأتى هنا . . سيرانى وأراه سأتحدث إليه عن قرب ، ما الأمر يامها . . مالك تتعثرين وتوشكين على الانهيار كبناء قديم آيل للسقوط ، ذهنى فى سرعة يستعرض الفساتين فى دولابى ، هو قريب سيأتى قبل أن أغير تسريحة شعرى . . المفاجأة وردود فعلها السريعة أخذتنى فى دوامة من الانفعالات وزجت بى فى سلوك بدا لى تسرعى فيه وشدة انفعالى حتى أنسانى تحفظى ، ولكن ظل هناك فى أعماقى جزء خارج عن ذاتى ، جزء على مسافة يرقبنى ويحصى تحركى وسلوكى ، كان ذلك الجزء الأول ملاذى من أية تصرف يصدر منى ، كما أنه أكد لى فى نفس الوقت خوائى الشديد ، أسمعه وهو يقول قبل المرض كان لابد لى من زيارتك عبارته هذه زادت من حيراتى . . فوقفت موزعة الخاطر ، ماذا ياترى تلك الضرورة التى كانت تحتم عليه زيارتى قبل المرض ماذا يريد وماذا يمكن أن يدور فى رأسه . . هونى عليك يا مها فهو قادم وعما قريب سينكشف كل شىء .

سلوى الصغيرة نائمة . . وحسنا فعلت . . يبدو لى أن زيارته ستطول . . وقفت حائرة ماذا أفعل . وتذكرت أنه ينبغى على ألا أقابله هكذا كأنما لا كلفة بيننا ، وعاد توزعى فى اختيار ما يناسبنى ووجدتنى فى النهاية ألبس بنطلون جينز وأضع شالا أبيض على كتفى ، وتركت شعرى منسدلا على الشال تشاغب خصلاته خصلات شعيرات الشال الوبرية ولما كانت حجرة الصالون باردة فوضعت المدفأة فى ركن منها لتطرد الصقيع الملتصق بالجدران والأثاث . . لذت بحجرتى إلى أن يحضر . . ذهنى خال من أى شىء . . فقط كنت أشعر بسلام هادىء يلفنى وانتظار فضولى بلا توتر .

ودق جرس الباب دقة واحدة . . إنه يعلم أننى فى انتظاره لـذا لم يكرر الجرس ، وتسارعت دقات قلبى ، فتحت مربية ابنتى الباب وسمعت وقع أقدامه إلى الصالون وتعمدت الانتظار لفترة حتى أتمالـك نفسى ، وذهبت كأننى أتجه إلى مكان لا أعرفه . لم يدخل الصالون كان واقفا فى المسافة التى تفصل الصالون عن ركن مكتبتى التى كانت تحتل قطاعا طوليا من الردهـة الفسيحة التى تشغلها مقاعد وموائد . . وأوانى زهور عارية من أى ورود ! وبعض اللوحات المتناثرة فى تناسق لست أدرى متى قمت بتنسيقها فى بيت والدى بالرغم من أننى كنت أيامها فى بحر من الدموع والحزن بعد رحيل خالد إلا أننى فجأة اكتشفت ذلك وفجأة وجدتنى أنظر إلى كل ما حولى بعينيه ، كان واقفا وظهره لى شابكا أصابع يديه خلف ظهره ، ترى ما رأيه فى كل ما أراه ويراه ؟ تأمله وصمته غير شاعر بوجودى خلفه بعث فى الأثاث والحجرات حياة اكتشفت أن تعامل مع كل حاجيات البيت رغم أنه بيت والدى ليس تعاملا أليفا بالرغم من أننى خارج عملى لا أذهب الى مكان آخر . هنا دنياى ولكنى اكتشفت الآن أنها كانت دنيا متنائية بعيدة تقف على مسافة منى ترقبنى هى الأخرى ولا أرقبها حتى مكتبتى التى أجلس عليها كثيرا كأن تعودى عليها جردها من أية جماليات خاصـة بها . أصبـح عطاؤ هـا عطاء وظيفيـا بحتا للاستخدام . مشاركة الآخر أى آخر يبعث فى الجمـاد معنى وحياة ويجعـل الاشياء تثرثر معك .

كنت منتشية انتشاء الأشجار وهى تستقبل المطر على سطح أوراقها بلهفة عام كامل من الجفاف والوحدة . . كان إحساسا وافدا على بوجوه سقطت كل تلك الحواجز التى كانت تتعثر خطواتى عليها . إن عدم دخولـه الصالـون

كضيف منتزعا لنفسه حق التأمل فى المكان ، نقلنى إلى جواره إحساسا ومشاركة ، وقلت لنفسى أى سحر هذا الذى حدث ؟! كان يتأمل لوحة مرسومة بالفحم لرجل فى جب لا يظهر منه إلا نصفه الأعلى . . قيد حديدى متحطم من حول رسغه الأيمن الذى ينتهى بأصابع غليظة تتشبث بحافة الجب مع أصابع اليد الأخرى المتحررة أيضا من القيد المنكسر لتصعد بجسده إلى أعلى ، كان رمز اللوحة أو المعنى واضحا . . لم تكن قيمتها فى ذلك ، ولكن فى وشايتها بالبراعة الأخاذة للرسام ، فقد جسد كل معانى الرغبة فى الخلاص والسمو عن أى معنى من المعانى أو جميعها معا فى توترات الجسد كله ، ذلك الذى امتلأ حتى الحوافى بتلك الرغبة العميقة التى تتعادل مع الحياة ، ثنيات الرقبة القوية خشونة الشعر وكثافته التى يوحى بها قصره وقوته . . عضلات الظهر . . توترها يذكرنى بتوتر عضلات فخذ حصان يهم بالانطلاق عائدا لصحاريه بعد طول أسر كان .

أسندت ظهرى للحائط أتأمله وأتأمل اللوحة ، لم ينتبه لطول تأخرى عن استقباله ، اللوحة كنت قد اشتريتها من حى مونمارتر ، أعجبتنى فكرة اللوحة فأهدانى إياها خالد ، اللوحة لم تستدع خالد من الذاكرة . . اللوحة موجودة بقايا من علاقتنا . . بل إشارة لا تخفى إلى لحظات من أجمل لحظات عمرى معه ، وبالرغم من ذلك لم يحضر خالد ، حضور محسن حجبه تماما حتى ما يدل على حياتى معه أصبح مجردا ومحايدا . . اللوحة حاضرة حضورا متنائيا عن أية ذكرى ، هى لوحة وفقط . . تماما كوجود سلوى وهى ابنته جزء منه ، هذا الوجود الدائم الذى يمدنى بالقوة الحقيقية . . بالحياة . . والاستمرار فيها . . لا لم تكن سلوى فقط هى السبب فى هذه القوة ، بل كنت أنا الدعامة

الأولى فيها ، فليس معنى أن القدر جرؤ على أن يسحق ويهدم بروجى وأحلامى فى لحظة من اللحظات أن أسلم له باقى قمم أحلامى . . إن وجود سلوى لم يحضر خالدهن غيابه ، كان يهز رأسه فى صمت هزات تتوافق ايقاعا مع خبطات قدمه اليمنى على السجادة التى كانت تخنق أى صوت . وفجأة التفت للخلف فرآنى . . لم أكن أود أن يمسك بى متلبسة بتأمله . . وإن كنت سعدت لأن يدرك مدى اهتمامى به ، أشرق وجهه الذى كنت أعترف بينى وبين نفسى أنه وجه مسمسم دقيق .

ـ أهلا مدام مها . . أنا . .

ـ أهلا استاذ محسن أأعجبتك اللوحة ؟

ـ معانيها وخطوط الرسام حقيقى قوية

ـ اشتريتها من باريس . . .

منذ متى ؟ وحاولت التذكر . . أيحتاج الأمر للتذكر ، بدأ لى أن ذلك حدث فى وقت بعيد أو زمن آخر .

ـ زرت مدينة النور ؟ أحسدك !

بدا ودودا مهذبا ، عدلت عن أن نجلس فى الصالون . . سحبت المدفأة ووضعتها فى مكانها السابق من المكتبة ودعوته للجلوس . . أبدى إعجابه بمكتبتى . . وسار الحديث بيننا سلسا شائقا . . ومضينا نثرثر فى كل شىء اعتباطا ، وكأنما كنا نخشى أن يسقط السكون بيننا فجأة ، كلانا كان يهرب من الصمت ، كنا نخشى ما يمكن أن يحدث لو مات الحديث بيننا وكان الحديث عن العمل والعاملين ومشاكلهم هى أقربها إلى نجدتنا ، قلت :

ـ ما رأيك فى نقد الأمس لبرنامجى ، وهل قرأته ؟

بابتسامة قصيرة عبرت بوجهه الدقيق ، قال :

ــ لا تأبهى بكل ما يكتب من نقد هذه الأيام ، فأنت تعلمين أن المرارات المترسبة فى أعماق الجميع منذ يونية ٦٧ وراء كل ردود الفعل العصبية والمتوترة التى تطفو على سطح مشاعرنا وأفكارنا .

ضحك وأضاف قائلا :

ــ ويشكر الناقد اللوذعى أنه لم يقل أن برنامجك الثقافى سبب يقف بجوار أسباب الهزيمة . .

وضحكت حتى تبدد ما كان فى أعماقى من سخط على تلك الكلمات التى قرأتها ، ما أبرعه فى أن يؤنس وحشة الفكر أيضا وليس وحشة الوجود فقط . .

وغاصت ضحكته فجأة وأضاف فى أسى :

ــ ما يحزننى حقا ما صارت إليه حالنا ، فقد أصبحنا غرقى وتحول كل فرد إلى جزيرة منعزلة تفصل بيننا البحار . . كل واحد منا أصبح ملتفا حول ذاته ، متسترا بأنانيته ومتمركزا داخلها ومحصنا ضد الآخرين ، بل ومحصنا ضد الحب ، أصبح كل واحد منا يخشى الآخر . . يقبع الفرد منا داخل حصنه ولا يتوقع من الآخرين إلا الهجوم عليه لا فتح مرافىء الود والمعاشرة واللقاء الإنسانى .

ــ إن ما تتحدث عنه ياأستاذ محسن ، يذكرنى برواية سقوط باريس لا هر نبورج وثلاثة دروب الحرية لسارتر ، كلاهما يتحدث عن هزيمة فرنسا أمام النازى ، إنها نفس المرارة التى نعيشها الآن .

ـ أتفق معك بل إننى حلمت يوما والعدو يجتاح العاصمة كما اجتاح النازى باريس . . كان الناس جميعا فى حالة هجرة . . هجرة داخلية . . وهجرة نفسية . . حتى تماثيل الميدان كانت تود اللحاق بطابور الفارين أمام العدو . .

وأحضرت المربية الشاى وانهمكت فى صبه . . وسألته عن السكر كم ملعقة يريد منها . . وكأنما كان حضور الشاى أصابع قلبت صفحة الحديث إلى موضوع آخر .

وكان فى خاطرى سؤال طالما راودتنى فكرة أن أسأله رأيه ، لست أدرى لماذا كنت أريد أن أعرف رأيه هو بالتحديد . . لم أكن أبحث عن حل لمشكلة ، ولكن استطلاع لرأى شخص نثق فيه ، كانت ثقة مبهمة لا مبرر لها ، فلم يسبق لى استشارته أو التعامل معه ، ولكن فى نفس الوقت لا مبرر أيضا للتشكك فيها ، وقلت :

ـ ربما لا تعرف ياأستاذ محسن مشكلة صديقتى هيام .

ـ الزميلة التى تحجبت منذ فترة ؟ . .

ـ نعم . . أنت بالطبع بعيد فلا تعرف أنها كانت تعانى من مشكلة . .

فقاطعنى وهو يقول :

ـ أنى أراها متحجبة عن ايمان وصدق . .

ـ ستسعد لو علمت برأيك هذا !

وللحظة لست أدرى أبعدت عينى عن وجهه الدقيق أم أننى تعمدت أن أصوب عينى فى عينيه . . وأنا أسترجع ذلك اليوم الذى اندفعت فيه هيام لا أذكر من أى اتجاه ، ولكنها سقطت على كالقدر . . ووعيت أنها بثقل رأسها

قد ارتطمت بصدرى . . وكنا ظهرا . موعد عودتى لابنتى أسلمها جسدى لتمتص ما تبقى منه ، ضغطت على صدر لا تملكه صاحبته ، فوضعت يدى عليه وأنا أهمس آه . .

وفوجئت بهيام تغطى شعرها ، فمددت يدى بطريقة لا شعورية أحاول أن أزيح عن رأسها الغطاء الأبيض الذى تتشح به . . وصاح بى محسن :

ــ هيه . . إلى ين ذهبت ؟

ــ فى هيام . . هى تحب الأطفال بجنون ، ولذلك بدأت بتقديم برنامج دينى ناجح لهم ، ولكنها ونحن معها لم ندر من أى اتجاه ولا كيف هبت ريح يريد أن تعصف بها ؟ قالوا أنها جريئة وأن جمالها صارخ ، وينبغى أن تتحجب ما دامت تنوى الخوض فى الكلام الدينى . . وهو كلام له أساطينه وأساتذته .

كان تحديا كبيرا لها ، فتحجبت وغطت الشمس التى تهدر بالضوء فوق كتفيها ، نعم أنها تملك أجمل شعر . . سلوك من ذهب منسوجة من شعاع الشمس . . ومن ماذا ؟ لا أستطيع أن أصف لك طوله وبريقه . .

وقاطعنى قائلا :

ــ فأنت شاعرة . .

ــ ولكننى فيما يخص هيام لست فى كل واد أهيم . . اننى حقيقة ياأستاذ محسن أقول أقل من الحقيقة . . حتى شاعريتى لا تسعفنى . .

ــ أتفق معك . . وشعرها رأيته قبل أن تتحجب . .

ــ ولفنا الصمت برهة كأننا نتملى معانى الكلمات ونتريث خشوعا لجلال ما تحمل من قيم . . وأحسست بجسور التفاهم الممدودة بينى وبين محسن ،

جسور كالتى كنت أحلم بها وأنا طفلة . . جسور وردية يقف فى آخرها فارس ممشوق القوام ، ذلك الحلم الذى شجعنى أن أقول بصوت مسموع .

ـ رباه لقد ألزموها قسرا ، وغطت هذا الجمال الالهى كله ، ولما آمنت بما طلبوا ونجحت . . يريدون قسرا أن تتعرى من حجابها مرة أخرى ، ولم أدر أن لهذه العبارة التى خرجت بنوع من الضيق من بين شفتى كان لها فعل القذيفة ، فانتفض محسن واقفا . . وشعرت بقوامه المشوق جدا ، ومستفسرا سألنى عن دقائق ما أقول ، فقلت :

ـ نعم هذا ما يطلبون ، لقد كنت معها عند زميلة تكبرنا ونثق بها بعد أن لمحتنى واقفة معها وهى دامعة العين و . . قاطعنى محسن وهو يقول بتعجب :

كثيرا ما لمحتها فى ردهات المبنى باكية تمسك بطرف وشاحها تجفف بها دموعها .

ـ المهم أن زميلتنا حاولت اسكاتها لدرجة أن قدمت لها حلوى كالأطفال . . وهيام تشكو لها من طلبهم المغرق فى الغرابة .

كمن نفد صبره ، فأشعل سيجارة وهو يشير إلى بيديه السمراوين . .

ـ وبعد ذلك ماذا فعلت معها ؟

ـ وجدتنى ضمن خطين متوازيين أحكى له . . وتتابع الصور فى مخيلتى وأنا أقص عليه :

ولك ياأستاذ محسن أن تحكم كيف تقيم الأمور أو تعالج مثل هذه المشاكل ، فى يوم خلال تلك المشكلة التى تعانيها هيام . .

تصادف أن تواجدت هيام والراقصة زين فى حجرة زميلتنا . . دخلت عليهن وصافحت هيام ثم الراقصة وأنا أقول لها :

ــ أهلا مدام زين هل تذكرينى ؟ لقد رقصت ليلة زفافى ! ولم أكن أعلم أن كلماتى هذه كانت بشكل ما تأكيد لمعنى كانت تقوله زميلتنا لهيام ، فما لبثت أن صاحت :

ــ برافو مها

والتفتت بكليتها إلى هيام لتقول لها :

ــ كونى مثل صديقتك مها . . لقد عرفت زين لأنها فنانة معروفة أن مها تعيش عصرها . .

فقال محسن مقاطعا :

ــ وهل معرفة أسماء الراقصات وعدد زيجاتهن وطلاقهن وماذا أكلن وماذا شربن وكم ثمن حجرات نومهن من ثقافة العصر ، ألا تكون قراءتك لسقوط باريس أو دروب الحرية أو حتى سماع البرنامج الثانى هى المعرفة العصرية ؟ . .

ــ نعم ياأستاذ محسن المهم أن هيام تتفق معنا فقد صاحت :

ــ وهل أنا لا أعيش عصرى ، هل التدين تخلف وسلفية ، لا التدين يعجبكم ولا التقدميون أو من تسمونهم باليسار يرضونكم . . قولوا لى ما الذى يمكن أن يرضيكم ؟

وفزعت السيدة من صياحها وقالت :

ــ يا ابنتى اتركى الاندفاع ، لم أقصد هذا ولكن لا تسىء الظن بما يطلب منك .

ثم أكملت كلامها :

– على العموم دعى عنك من كل ما قيل لك لنحتكم إلى الفنانة ، هذه فنانة ولها مكانتها فى المجتمع فلنحتكم اليها . .

وهنا صاح محسن بدوره :
– أهذا معقول ؟
وقاطعته قائلة :
– صبرا هناك ما هو أدهى فالسيدة الراقصة كأنما كانت فى انتظار الإشارة لها بالحديث . فانطلقت تقول وقد وضعت ساقا على أخرى :
الحقيقة سأقول الواقع ما أحس به ، أن هذه الملابس وهذا الخمار أكثر لفتا للنظر من أى ثوب لبيير كاردان . . ولا أبالغ كثيرا إذا قلت أنه أكثر لفتا من بذلة الرقص . .

ورأيت محسن يفغر فمه فى دهشة ثم تلوت شفتاه فى استنكار وقال :
– هذا كثير ولا يليق أبدا . . إنها أكثر لفتا للنظر لأنها تمثل الفضيلة وسط أمواج من العرى ، فيما يبدو جاء العصر الذى تقذف فيه الفاضلة بحجر . .

كما تقول تماما ياأستاذ محسن فقد صاحت بهم فى عنف بعد أن ابتلعت عيونها دمعة كانت توشك أن تسقط : على المسلم أن يكون شامة بين الناس ، ولا يعنينى أن أكون محورا للأنظار .

تنهد وأخذ نفسا عميقا من سيجارته وقال :
– إن حماسك رائع وتبدين أكثر روعة عندما تأخذك هذه الحماسة فتحركين يديك وعينيك . . ويكاد كل جسدك يتحدث معك عن فكرتك . .

ووجدته يقفز بى فى منطقة حارة من نفسى ، أهى دعوة لأن تترك ذلك الحديث وننبت حديثا آخر ؟

ـ الإيمان بالفكرة حتى الامتلاء والفيض هو ما ينقصنا ، ولا تتصورى أننى أبعد عن موضوع هيام وما تقاسيه ، بالعكس ياسيدتى ، دائما هناك أشياء لو افتقدت لما عاد هناك ميزان يمسك بشىء . . ولابد فى هذه اللحظة أن يبعث الله من يعيد رمانة الميزان إلى الوسط . . وللوصول لذلك هـو مشوار حلم وعمل شاق . . الحلم . . بدونه لا يمكن أن يكون هناك عمـل ولا أمل . ولا تتعجبى سيدتى مها إذا كنت أترك التعليم والاسكان والصحة وعشرات المشاكل المكدسة كالتحديات أمامنا . . وأتحدث عن الحلم ! لأننا لا نعرف كيف نحلم !!؟ وإذا كان هناك بعض منها . . ! فهى أحلام فردية وضيقة محدودة بذواتنا . . تستطيعين أن تسميها طموحات فردية نحو اشباع حاجيات مادية . . لا مكان إلا لفئة قليلة من المثقفين لها اشباعات روحية حيث يحلقون فى آفاق يختارونها . . أما حتى الواقع المحيط بهم والملموس فيتضح فى كلماتهم ومن أقلامهم . فيرمزون . . أو يسقطون . . ! أو يشطحون فى كتاباتهم الى عوالم فلسفية هربا . . أو عوالم جدلية شغلا لمساحات معينة . . أو . .

ـ أو ماذا ؟ ماذا ؟

ـ أو تلقم أقلامهم ويملى عليهم خوفا . . !!

إن ما أتمناه هو أن يحلم الشعب بحلم واحد لوطنه . . واستغرقه حلمه كنت على يقين أنه لم يعد يرانى ولم تكن الجدران وصفوف الكتب فى المكتبة تحجب نظراته من أن تخترقها جميعا فيرى الـوطن على امتـداده الفسيح . .

صوته أصبح أكثر خفوتا وتهدجا ومترجعا فى السكون الشامل كأنه ينبعث من الماضى البعيد أو من أغوار ضاربة فى القدم قدم بزوغ الضمير الإنسانى :

ـ كيف نراها ؟ على الإنسان المصرى الفنان حفيد الذين شيدوا الأهرامات بكل ما تحوى من الخوارق والأساطير . الفنان المصرى القديم الجديد فى الفنون التشكيلية والموسيقى والمسرح فى الكتاب والرواية أن يقدم حلم الشعب . ونندفع جميعا لتحقيقه دون تفسيرات جانبية حسب المصالح الفردية أو الفئوية . . هذه هى البداية أن نحلم حلما واحدا خارج ذواتنا . . خارج أنانيتنا وضدها . .

وبالرغم من روعة حلمه الذى احتوانى به محلقة . . محلقة على علو شاهق إلا أننى لم أستطع أن أصعد أكثر !؟ لأنى وأنا على هذا العلو الشاهق كالطير تماما بدت لى أشياء كثيرة أكثر وضوحا وتحديدا . . فيا نحن فيه الآن غارقين حتى الأنوف حتى أعلى الجباه كان مبدأه وسببه الحلم بعينه . . إلا أن كل فرد منا كان يحلم منفردا يعزف نغمة واحدة لنفسه فلم يرقوا لمستوى السمفونية التى تهز أركان الدنيا لتؤكد خصوبة وعطاء الإنسان المصرى اللا نهائى . . فالحلم يظل هو الحلم ولكن الفرق شاسع بين النغمة الواحدة وبين السمفونية الموقعة . . فالنغمة تبقى أبدا نغمة واحدة . . سواء نادت بالمساواة أو العدل أو برفع الاستبداد . . ولما كان كل واحد يعزف بطريقته المرتجلة أو المقلدة أو المستعارة فكانت المحصلة النهائية نشازا وانحرافا عن مسيرة السمفونية التى كنا ننتظرها بكل اللهفة والاعتداد . . ونحن سادة الإبداع الفكرى وأصله . . نحن الذين أقرأنا الخليقة لتهتدى .

وبالرغم من روعة حلمه الذى احتوانى به محلقة أجمع بين أصابعى النحيلة الأمس . . وأتحسس الغد بالأمل . . انفطر قلبى وأنا أحس السقوط من كل هذا العلو كالكابوس المزعج الطويل . . فأشعر به ثقيلا يـزهق الأنفاس . وفكرت بصوت مرتفع :

ــ ولكن كيف لهذا الحلم أن يتحقق ونحن محتلون ؟ كيف نحلم وإرادتنا ليست لنا ؟

ــ أى احتلال تعنين ؟ الإسرائيلى أم السوفيتى ؟

وخفت بالرغم من أننى فى منزلى وقلت له هامسة :

ــ الجدران لها آذان .

فصاح بى :

ــ ضقنا ذرعا بالخوف والصمت . . لن تتحرر هذه البلاد قبل أن تعرف حرية الإنسان . .

وكف عن الحديث وهو يتنهد . .

لفنا السكون . . كان ممتلئا حتى الحوافى بما يقول . . كنت فرحة به . . كان يعبر عما يجيش فى أعماقى ، أهكذا يمكن أن يكون التواصل ؟ أيمكن أن يكون ذلك نوعا من التواصل الروحى . . حتى لقد كدت أحدثه عن ذلك منصرفة عما يقول : !

استمر الصمت ولم يكن بقدرتى أن أخدشه ، فقد كنت على يقين وقتها بأننى أمام إنسان يصلى ، أشعل سيجارة أخرى وفجأة انفجر ضاحكا وقال :

ــ عذرا أثقلت عليك بخطبة حماسية . . ولكن كلامك عن هيام أثار حلم عمرى . .

أى نوع من الاحتراق يمكن أن يكـون مشتعلا فى أعمـاقه ، ووجـدتنى أتساءل من داخلى ، هل يتحدث إلى زوجته بأفكاره هذه ؟ هـل يقص لها حلمه ؟ هل تفهمه وتقدره وتشاركه صمته وأفراحـه ؟ تخفف عنه ؟ تـراها تعمل أو لاتعمل ؟ وكم من الأولاد بينهما ؟ . .

عشرات الأسئلة وجدتها فجأة فى ذهنى كالفراشات الهائمة ، لم أدر كيف وصـل بى الأمر أن أهتم بشئـونه الخـاصة ؟ كـدت أصبح هـو شئونى هـو مسئوليتى ، ترى هل يشعر ؟ . . هل أدرك مدى اهتمامى ، رسائل له . . نظراتى واهتمامى الذى يطل من عينى . . . عطرى ؟ هل كل هؤلاء المراسيل أوصلوا رسائلى ؟ هل أدرك مضمونها هل أحدثه عن ذلك . . أنـاقش معه الأمر ؟ . . لا تكونى ساذجة . . الحب لايناقش . . الحب يعاش ولكن هل هو يحبنى ؟ وطال صمتنا . . إذا لم يكن يحبنى فما هذا الحديث كله ؟ ولم حضر لزيارتى . . ؟

وشتتتنى الحيرة . اهتمامى به لا يعنى اهتمامه بى ، ووجدتنى من فيض ما بى أسترجع فى ذاكرتى أبياتا للحلاج كنت حفظتها من الكتاب الذى وضعه والدى عنه وجاء فيه :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته
واذا أبصرته أبصرتنا

لم يحدث لى أن أخذت شعره بهدفه الصوفى ، كنت أعتبره غزلا خالصا للمـرأة ، فكنت أشعر بـأضعاف الأحـاسيس التى يشعر بهـا المتصوفـة من

قرائته . . كنت أنزه الله تعالى من الحلول فى البشر أو الاندماج فيهم . .

وقطع استرسالى وقال متسائلا :

ــ فيم تفكرين ! فى كلماتى ؟

كذبت :

ــ لا شىء بالتحديد فى الدنيا عموما !

استنتجت أنه يود الحديث فى موضوع آخر وتذكرت ما قاله فى التليفون ، شدنى الفضول ولكنى لذت بالصمت .

ــ لست أدرى كيف أبدأ ؟ وفيما يبدو أننى أود أن أقول لك ما كان ينبغى أن أقوله منذ فترة بعيدة . . منذ رأيتك تعملين معنا .

أهو تمهيد للمصارحة بالإعجاب ؟ واصل حديثه :

ــ والدك رحمه الله كان أستاذى . .

ــ هذه معلومة جديدة تماما أنت كنت

ــ نعم طالبا فى قسم الفلسفة . .

واحتضنت سعادة وهمية بين ضلوعى ، وأسفت فى نفس الوقت لان كل ذلك سينقضى وشيكا ، وأن لا لقاء بمثل هذا الامتداد بعد ذلك وبعد تردد طويل واصل كلامه كأنما هو محرج :

ــ المهم لأصل إلى الموضوع مباشرة . . أنا أستعد للماجستير . .

ــ هذا شىء طيب . .

ــ واخترت موضوع الرسالة الحلاج . .

ماذا أقول للأقدار ! هل أسعد . هل أقفز مرحا وأقول له أننى كنت أسترجع بعض أبياته ؟

واصل كلامه :

ـ انى أبغى بعض المراجع التى اعتمد عليها أستاذى . .

وضحت الحقيقة ! . . ليست الزيارة من أجلى ، وكأنما سقط على قلبى جليد الدنيا كلها ، وضقت بنفسى وحياتى ، فقلت فى برود :

ـ المراجع مدونة فى آخر الكتاب !

ـ طلبى ذو شقين ، الأول أن الماجستير سيكون عن كتاب والدك نفسه عن الحلاج ، ثم أن كثيرا من المراجع التى أعتمد عليها ليست موجودة فى المكتبات .

ـ لن أدخل فى نقاش عما سيكون عليه موضوع الرسالة :

ـ أبدأ أن كتاب والدك كتاب عظيم ، لو وضع انسان آخر مثل هذا الكتاب لحصل على درجة الدكتوراه . .

ـ شكرا ما كان أسعده لو سمع ما تقول ! . .

ـ آسف ان أثرت مواجع !

ـ أبدا هذا هو شأن الحياة فى بلادنا ، يأتى التقدير بعد فوات الأوان . .

ـ كفاهم فرحا وسعادة أنهم كانوا وهم يعطون يدركون فى أعماقهم أنه سوف يأتى اليوم الذى يصفعون وهم فى قبورهم وجه النسيان والهجران وينبعثون مرة أخرى أقوى مما كانوا وأكثر حضورا . .

شعرت تجاهه بامتنان شديد ، كانت كلماته كضوء خافت فى ظلام احباطى الذى غصت فيه أثر تعرفى بهدف زيارته ، لن أقطع جسور التواصل معه . . وأثر قرارى هذا أحسست بدفعة شعورية قوية نحوه ، أن طريق

ما يمكن أن يكون ودا واعجابا متلاقيا فى كثير من الأفكار يزداد قوة ، أشعر أننى أعرفه منذ زمن بعيد ، ترى هل اختلط على الأمر ؟ هـل تراوده نفس الأفكار ؟

واتفقنا كيف يتم التعاون والمساعدة من جانبى ، إلى أن ينجز رسالته ، واستأذن انصرف . .

كانت أمى ترقب التليفزيون وهى تنام أمامه ، فأعدت لى الدادة عشاء خفيفا تناولته وأنا فى الفراش ، تقلبت كثيرا ضجرة . . عشرات من شظايا أفكار وأحاسيس شتى تلفنى ، وبعد نحو ساعة أو أكثر نمت نوما كالسقوط فى غيبوبة . .

● ● ●

فى طريقى إلى الدار الصحفية كنت أفكر فى رئيس التحرير الذى أنا بسبيل لقائه ، أنه يونس وجدى ذلك الرجل الذى صاغ أحلامى ، أحلام طفولتى بمجلته كوكب العصر كنت فى فترة من فترات حياتى معجبة به وبكتابته ومجلته الفنية ، كانت كل صفحة من صفحات تلك المجلة تغذى أحـلام طفولتى وصباى وتطير بى أحلام يقظتى على أضواء تحيط بى والتصفيق والهتاف لى يصم أذنى بلا سبب مفهوم أستحق عليه كل هذا كدت أتراجع عن الذهاب إليه ولكن ظروف برنامجى تحتم على لقاءه استعدادا للتسجيل معه .

دخلت عليه . . . اللقاءات المـرسومـة بدقـة تكاد أن تكـون بالمسـطرة والبرجل ، حديث التليفون يوحى بأنه يتكلم مع شخصية كبيرة ، انشغال

وذهول عما حوله ، ثم قفز مرسوما من على الكرسى مرحبا بى خـارجا من خلف مكتبه مادا يديه نحوى يريد احتضانى . .

ــ أهلا مها ستكونين نجمة ٦٨

وقفت مكانى كى لا يتقدم أكثر ، ورفعت يدى كالمحذرة ، ووجدتنى رغما عنى أقول :

ماذا تظن بى ؟ أم ربما ترانى . .

تراجع وذهب خلف مكتبه ليعود منـاوراً ، قبع هنـاك بجسده النحيـل وكتفيه المتدليتـين واللتين يسقط فيهـما رأسه بشعـره الغزيـر الأبيض وأذنيه الكبيرتين اللتين تومئان إلى مكره . . هرش رأسه وقال :

ــ كنت أحسبك كصديقتك ؟!

ــ صديقتى من ؟

ــ ليس لك إلا صديقة واحدة تربطك بها علاقة حميمة . .

ــ هيام . .

ــ اسم الله عليكى ياحلوة . .

مناورا مرة أخرى يريد أن يوحى إلى بأنه يعرف كثيرا بحكم أنه صحفى أيهام غريب ، عموما ليس هنـاك ما أخشى منـه ، عملى وابنتى فسهـامك طائشة . .

وظل يتكلم وأنا أكتشف ما يغمره حديثه من حكم مسبق وفقا لقوانين عاله فأنا أرملة وتليفزيونية ، فأية مواصفات ويدعى أنه فوجىء بأننى لست كهيام من أجل ذلك قفز يريد احتضانى !! كأن عدم تغطيتى لشعرى مبرر كاف . فروق وأحكام من صنع خيالاتهم المريضة . . ياويل الأحلام المبددة . وظل

يتكلم وأنا أفكر فى أشياء بعيدة ، ويجوب خيالى هناك فى الشرق على القناة حيث يواجه بعض من أبناء بلادى الخطر والموت والعدو والمستقبل . . أعادنى إلى غرفة مكتبه وهو يسأل :

ــ فيم تفكرين ؟

قلت على الفور :

ــ فى هيام . .

ونطق رئيس التحرير وهو يمط شفتيه عجبا أو دهشة لا أدرى ، ولكن تأكيدا لكلماته قال :

ــ أنكون فى القرن العشرين ونحدث الطفل عن الحرام والحلال ، عن التهديد والوعيد ؟

ــ إذن اقترح فيم نكلمه ؟

ــ نحدثه عن العلم . . فى التتبع بالنظارات والمجهر لنبتة لوردة تحدثه عن الفضاء وعن القمر . .

لكن هيام كانت قد قالت لى يوما : أنا أحدث الطفل عن الله لأنه لم يعد هناك وقت لأن يجلس إليه ويحدثه أبواه . . صار من واجب أجهزة الإعلام أن تحكى له حدوتة وجود الله قبل النوم . . وكنت أعى أننا نسينا أشياء كثيرة ومعانى كثيرة ، وتصورنا أنه بالعلم فقط نصنع المعجزات ، والدين ليس ضد العلم وأن الذين يضعون الدين فى مواجهة العلم مغرضون ، ألم تكن أول كلمة نزلت فى القرآن :

إقرأ ؟

وافقت على رئيس التحرير يصيح بى ملوحا بيديه :
ــ مها ! فيم تفكرين كل هذه المدة ؟
تلقفت منه كلمته لأقول بقوة :
ــ أبحث عن الله . .
نظر إلى وهو يضغط على الجرس وقال :
ــ الله هو نحن . . .

كان لقاء عاصفا ، وكان لابد أن يكون كذلك ، وتمت تسويات العمل وكنت متعجلة لكى أفرغ من كل شىء ، وأحطت مخرجى فى كلمات سريعة بالذى دار بيننا ، وشعرت بأن ذلك بقدر ما أراحنى أرضاه أيضا ، لأنه إضافة إلى رصيد أطماعه فى ، والذى بدا واضحا فى نظرات عينيه ، ولم أدهش كثيرا عندما فوجئت بنقد لاذع وسخرية ظالمة على طريقة نطقى للكلمات فى باب الفن بمجلته ، هززت رأسى بلا مبالاة ، وكنت أشعر بتعاسة لا حد لها لا بسبب ذلك النقد ولكن من شعورى بوحدتى ، إحساس بأننى فريسة مطاردة ، على الأرملة أن تشنق بعد وفاة زوجها ، شعرت أن انسانيتى . . طاقاتى ووجودى كله أمومتى وعملى كل هذا يختزل إلى جسد ، للحظة اشتهيت أن أضع رأسى على كتف محسن ، وترتد أنفاسى إلى لتؤكد لى أنها سكنت فى تجويف كتفه ورقبته . . وأبكى . . وأغمض عينى ليخفف عنى ما أنا فيه . .

ازدادت مع الأيام جرأة المخرج معى ، فما من فرصة إلا ويحاول أن ينتهزها ليضع يده على كتفى وهو يحدثنى ، يحدق فى بعينيه ويوشوش لى بكلمات غزل رقيقة وهو يمد رقبته إلى الأمام وكأنه يخلعها من منكبيه ويزم عينيه ويقسو فى

تغميضها . . . . فأرى أهداب عينيه ملتوية إلى أعلى كأنها تئن . ثم يترك لشفتيه العنان فتتدلى الأولى فوق الثانية ، ولما كانت الأخرى متروكا لها الحبل على الغارب . . فأرانى فى النهاية لا أستطيع التفريق بين أن أعتبره ضاحكا أو جادا يوشوش بكلمات الحب ، يبدو أن ما قصصته عليه من أمر رئيس التحرير زاده جرأة وثقة فى النفس ، ياالحيرتى وضياعى بينكم !

وضقت به مرة وقلت له :

من أنا ؟ أو ماذا تظننى ؟

ــ أبعد هذا العمر لا تعرفين من أنت ؟ وربما من أنا ؟

ــ نعم فإنى كدت لا أعرف شيئا . .

ــ بالطبع أنت مذيعة ناجحة ، ولست كصديقتك الشيخة هيام . .

وكدت أصيح هيام ! مالذى أتى بها فى حديثنا ؟ كم يبدو لى هذا المخلوق فى بعض اللحظات ، شخصا لا أعرفه ! كثيرا ما أنكره وكثيرا ما أتساءل بينى وبين نفسى ، من هو ؟ ولكنى أحول مجرى الحديث عن الشيخة هيام قلت :

ــ من أنت ؟

ــ من أنا ؟ أنا يامها من أحبك من أول نظرة . .

وكانت مفاجأة ، ولكنى بسرعة تمالكت نفسى ، كنت أريد أن أتلقاها كمزحة طريفة . . فقد قالها بشكل مسرحى أراد أن يوهمنى بفرط حركاته ، بصدقه الزائف ، وقلت :

ــ أنا سعيدة جدا بمشاعرك الأخوية جدا ياأستاذ فكرى . ومصدقا أجاب :

ــ طبعا طبعا احنا اخوات . .

أثناء حديثنا كانت الكاميرات قد أعدت ، وحضر الضيف وقورا أنيقا متردد الخطو ، لايعرف أين يجلس ، الدخان يعبق المكان فى سحب كثيفة ، الأضواء مسلطة والكاميرات تتحرك استعدادا للعمل ، كان فكرى يعطى تعليماته الأخيرة ، كنت أساهر الضيف بكلمات المجاملة ، كنت أحاول طرد الملل من نظراته ، كان قلقا وكان على أن أهدىء من روعه . وطال انتظارنا ، قمت أستجلى الأمر فإذا بمخرجى ينتهز الفرصة خفية ويحتك بى ، خلال كل هذاالارتباك مصمم على أن يبثنى حبه فى شكل سخافات طفولية ، قلت :

ـ هكذا أنت دائما تتركنى فى بحر خجل مع الضيوف وأنت هادىء كما أنت ولديك روح للمعابثة .

وقبل أن أزيح يده الممدودة نحوى ، هرب النور من حولنا فجأة وانسدل الظلام كثيفا كستارة غليظة . . وتشابكت يداه فى قوة حول خصرى ، فوجئت بالذى يحدث كأنما يد امتدت عن عمد لتقطع التيار ، كان ذهنى يدور داخلى كعقرب ساعة مجنونة جسدى لم يكن له وجود ولم أكن ساعتها أنثى ، كنت عقلا مجردا . . كنت فى مأزق ، أمامى منضدة على درج له ارتفاع نحو نصف متر ، يده تحكم الدائرة حول خصرى ، استغل خوفى ووقوفى كجذع شجرة ميتة ، كنت باردة كالثلج ، كنت أفكر كيف يمكن أن أعمل معه بعد ذلك ، برق محتلا كل عقلى شخص محسن ، وتذكرت خالد . . . أول رجل يقترب منى هكذا بعد وفاة زوجى ، كدت أنهار باكية ، بدأت أعواد الثقاب تبرق فى الظلام ، وانسحبت يده بعيدا عنى . . وقطع الصمت أحد العاملين صائحا :

ــ يامسجل . . .
بسرعة رد عليه أحدهم معاتبا :
ــ دا بدل ما تقول يامسهل ؟

ضج المكان ضاحكا وكأنما بددت تلك الضحكات الظلمات من حولنا فأخرجتنى من إحساسى بأننى فى جب وحيدة ، ولكننى كنت أرتعد ضجرة وضـائقة بحيـاتى وواقعى ، كنت أشعر بهـوانى على نفسى وعـلى الناس ، وخواطر تلك القريبات فى تلك الأيام البعيدة تغزونى بقوة . . . وتـذكرت مقولة إحداهن أحسن تتزوج . . ظل رجل ولا ظل حيط . . كلمة لم تقل عبثا ، إنى أراها عصارة معاناة المرأة فى علاقتها الدنيوية بالرجل . . الكائن التابع ، على المرأة فى غابة الرجل أن تحتمى بأحدهم حتى لا تكون جسدا يراد أن يستباح ! . . حقيقة إن تزوجت فإن ذلك لن يمنع الطامعين ، ولكنه على الاقل يحد من جرأتهم . . لأنها زوجة لرجل ! ولن يكون الجانب الـوحيد لشخصيتى وكينونتى مختزلا فى جسد مرغوب ، هل سيظل هذا الأمر يطاردنى كالفريسة ؟ لا راحة . . الا وقفة لالتقاط الانفاس ؟ . .

واستنجدت فى خيالى بمحسن ، إن زيـارته ومشـاعرى التى نمت حـوله كالنباتات المتسلقة كانت ملاذى ، حتى ولو لم يبادلنى مشاعرى . أدركت الآن أنـه يكفينى أن أحبه هـذا الحب الذى هبط عـلى كسيـاج يحفـظنى من أى شطط . . أى ضعف ، قبل محسن لم تكن هناك قوة حقيقية للقيم ، ولكل المثل التى تعلمتها فى المنزل والمدرسة ومن خلال قراءاتى . إنها تظل نظريات ، أشياء معنوية لا قدرة لها ولا سطوة إزاء الواقع الذى يقتات كل ذلك ، رباه

إذا لم يجد الإنسان من يشاركه أفكاره وقيمه ورؤ ياه ووجد الآخرين يسخرون من مثالياته . . . يبدأ فى الشك فيما هو مؤمن به حقا . . وتقل الثقة بنفسه ، وكنت أعانى تلك اللحظات المريرة . . ولكن منذ لقائى به أصبح من الممكن أن يشاركك إنسان آخر وأن تسمع بأذنيك صوتا آخر غير صوتك يتحدث إليك . . وتجد الأفكار التى عشت معها وحيدا تتجسد كلمات منطوقة وأملا ، فأشعر بالامتلاء بعد الخواء وبرغبة فى الحياة أكثر ، فبدلا من المرور فيها تبدأ الحياة تمر من خلالى .

وكما هرب النور فجأة عاد حادا وساطعا يعشى العيون . كانت عودة النور بعد هذه الدقائق عودة لما كنا فيه قبل انقطاعه ، آثار قبضات فكرى حول خصرى أشعر بها كخاتم إهانة كبيرة وعميقة . دب العمل فى حماس وبدأت الكاميرات تتحرك . . وصعد المخرج مرة أخرى إلى برجه ، وكان لابد أن تنطبق ضلوعى على ما حدث كما تنطبق الأرض أثر زلزال على كل ما كان على سطحها وكأن شيئا لم يكن ، على أن أجلس إلى الضيف وأتحدث معه هادئة ، بل مبتسمة عن الفن ودلالاته الحضارية ، وكيف يمكن رفع مستوى التذوق الفنى للجماهير !

● ● ●

سلوى تكبر ولكنها لا تكبر بين يدى ، معظم ساعات اليوم أصبحت فى الحضانة والفترات الأخرى مع والدتى وأنا أراها خطفا ، كلتانا فى شوق دائم للأخرى ، أخذت تتعلم بعض الكلمات تفتحها كأكمام الزهر . . يتم بعيدا عن ناظرى وعن رعايتى لها ، يشقينى أن ضرورات حياتى تدفعنى دفعا بعيدا عنها ، أريد أن أمكث معها بالقدر الكافى فلا أستطيع ، خروجى لعملى

احساس بتحقيق ذاتى وإلا تحطمت ، أنا لن أنسى أقراص الفاليوم والكالسوبرونات التى أدمنت تعاطيها فترة طويلة من حياتى بحثا عن لحظة استرخاء لأعصابى المشدودة كالوتر . كانت تعطينى أحلاما وشعورا شاملا ورديا ووهميا ، كنت فى حاجة إلى ذلك الوهم من الرضى والقناعة الروحية والنفسية ، العمل أنسانى ذلك ، دفاعى عن سلامة جهازى العصبى ضرورى حتى أستطيع رعاية سلوى ، للعمل سخافاته وتوتراته ولكنه يلقى بى فى حالة من الحيوية والانهماك خارج الذات . وتذكرت مسرحية بيت الدمية لهنريك ابسن وبطلتها نورا وهى تصفع باب بيتها إلى الخارج على ألا تعود وتذكرت كل ما قرأته عن هدى شعراوى وقاسم أمين وكتابات ومجلات ذلك الرجل رئيس التحرير والمخرج وفعلته وموت خالد وكلمات محسن التى تصب فى عروقى ونبضى قوة فولاذية . وأتعجب كيف يجتمع كل هؤلاء داخلى وأتذكرهم تباعا فى صعيد واحد ، ما أقسى أن يكون الإنسان وحيدا .

● ● ●

سافر محسن إلى الاسكندرية لبعض شئونه وقال إنه لن يتأخر أكثر من يومين ، ومضت عشرة أيام ولأول مرة تغزونى فكرة إمكانية فقد محسن لأى سبب من الأسباب ، وصعقت كأنى فقدته فعلا ، وطردت ذبابة الأفكار السوداء ، ولكنى بدأت أفكر فى محسن فترات أطول وأسترجع بعض كلماته لى والتى دائما ما تكون قليلة وعلى فترات متباعدة كلما التقينا للحديث عن رسالته والمراجع والخطوات التى قطعها فى الاستبعداد لها ، كان يقول لى :

ـ انظرى إلى أعماقك دائما وابحثى فيها بحيدة كاملة عن أسباب قبولك أو رفضك لشىء .

أو يقول لى :

ــ تجردى من أنانيتك لتضعى الآخرين فى مأزق !

وعندما ينتابنى الخوف فور البدء فى كتابة قصيدة جديدة وهو الخوف الذى أعتقد أنه سيظل يلازمنى أبدا وعن الصعوبات التى تنتظرنى . . **كان يقول** لى :

ــ أنت فنانة وتدركين أن تلك المعاناة هى قدر الفنان ، ويياستى على رأى جدتى جبال الكحل تفنيها المراود .

ولكنى ألاحظ أنه فى طيات كل ذلك لم يبد بى اهتماما زائدا دائما وبطريقة كيسة يدفع نفسه بعيدا عنى ، كان يدفعنى دفعا لأن اعتمد على نفسى . . وحين حكيت له قصتى مع مرض خالد ووفاته فى الغربة وابنتى ومشاكلها ، صاح بى بعدها :

ــ يالك من إنسانة قوية !

وجعلنى أدرك أن مباشرة الحياة وحدها بطولة ، وقال لى يومها :

ــ اننا نعيش حياتنا مجزأة فلا نشعر بأننا نقوم بأشياء ذات أهمية ، أو أننا نعانى مشاعر عميقة من الألم والتعاسة ، ونتعرض لفقد الأحبة والأصدقاء ، وتولى أيام السعادة ، والإقبال على فترات قاتمة ورمادية لا طعم لها ، أنها حصيلة ضخمة من الالم . . نأخذها بالتقسيط لتستمر الحياة ، فأن يستمر الإنسان حيا ومهما كانت معاناته وسط هذا الشتات من واقع رجراج مبهم والغد الضبابى والنكسة العسكرية والنفسية القاصمة . . أن نعيش كل هذا إنها لبطولة !!

والأمر ليس القفز من الحواجز وعبور المانش . .

نعم ! أية كلمات كان يقولها فى هدوء وصدق ، وآه لو يعلم جزئيات المعاناة التى بدأت أخوضها مع سلوى ، عزيز على أن أراها تقول : ماما فقط ، ثم بعد ذهابها للحضانة بدأت تسأل عن بابا ، ووضعت صورة زفافنا الكبيرة فى حجرة نومنا وبدأت أحدثها عنه ، وأخبرها أنه مسافر ، نعم فهو مسافر سفرة طويلة ، لم أكذب عليها . . فهناك أسفار تعقبها العودة إلى الديار ، وهناك السفرة بلا عودة ، هناك فى ذلك العالم الذى لا نعلم عنه شيئا ولم يعد أحد حتى الآن ولن يعود ، وإن كنت فى بعض الأوقات أقول لأمى : لو ذهب أحدنا قبل الآخر فعليه بطريقة ما أرواحا أو ومضات خارقة لابد أن تخبر الأخرى بالأمر ، وما الحكاية هناك ؟

ثم ننفجر ضاحكتين ، وسرعان ما تجثم الكآبة علينا ، هى تتذكر أبى وأنا أتذكر خالد . . من أجل سلوى التى بدأت أدرك مدى تأثير غيابه عليها ، شىء ما فى أعماقها منكسر ، شىء خارج عن إرادتى ورغبتى ، هناك فى أعماقها يقبع بعيدا عن متناولى . . شىء لا أملك إزاءه إلا التسليم ، وجدانها كله ممتلىء به ، وكم تحزننى وهى تقول لأى رجل تراه بابا فأصر على أن أقول لها بحدة : لا ليس بابا هى تشعر بالفقد وهى ما زالت ناعمة الأحاسيس وساذجة الوجدان . . تشعر بالفقد عندما ترى آباء زميلاتها وزملائها فى الحضانة وفى الشارع ، ترى الرجل وزوجته وأولاده . . ترى بعينيها الطفلة اكتمال الأسرة ، كانت ممتلئة وتفيض حوافها بكل ذلك حتى أصبحت روحها تبث وتحيطها بإطار من السلوك والنظرة التى يقبع فى أعماقها حزن بدائى يتألم ولا يفصح كذلك الحزن الذى نراه فى عيون البقر . . حزن تاريخى وقدرى . . اليتم . . اليتم الذى يضفى على تحركها فى لعبها وصمتها

طابعا ساكنا منزويا ومنكسرا . . نظراتها المستكينة تعكس ما فى وجدانها من قلق مبهم أشعره يطل من عينيها السوداوين . . . هناك فى الأعماق بعيدا عن متناول أحد حتى الزمن وتأثيره الحلوى . . اللعب . . الملابس الجديدة . . مداعبات الجدة . . كل ذلك تفرح بـه . . تضحك وتكـركع حتى تـدمع عيناها ، ولكن دموع الفرح تلك لا تغسل أبدا ولا تذهب بذلك القابع فى أعماقها ! ماذا أفعل . . عذاب . . . بطولة ؟ . . . لا أريد هذه البطولة ، فقط أريد أن أحقنها بحقنة تذهب ذلك الحزن الجاثم فى الأعماق .

القسم الثانى

إن كل ما جرى هنا في القاهرة من أحداث توالت علينا كتوالى الموج فى قوافل متلاحقة طوال الثلاث سنوات الأخيرة والتى كـانت من العمق حتى لكأنها سكينة المحراث تغوص فى التـربة البـور فتقلبها رأسـا على عقب ، وترتعش الأرض من أعماقها كارتعاشة الرحم وهى تتلقى اللقاح لتثمر شجرة النصر والعبور .

كانت سنوات عظيمة ، ففيها رأينا لأول مرة منذ عام ٦٧ زرقة السماء فوقنا ، ولذ لى أيضا أن أذهب إلى النادى منذ وفاة خالد ورأيت أشخاصا لم أكن أراهم ، وزميلات وزملاء من الكلية كأنما كانت هناك حواجـز وستر تفصل بين الناس الأحاديث تدور بين الجميع تحلم بالغد . . ذهبت إلى غير رجعة سنوات تكميم الأفواه ، وتنسمنا هواء الحرية وقال لى محسن بعد أن قرأ قصيدة جديدة لى :

ـ تلاشى طعم المرارة من شعرك ، كأنك اغتسلت منها فى محيط ! قلت :
ـ لم أكن وحدى التى اغتسلت . . الجميع . . الوطن بأرضه وحصاه بمروجه وصحاريه وسمائه . . وعنى أقول لك أنا لم أشعر بمرارة الاحتلال الإنجليزى منذ كان متقلصا هناك على ضفاف القناة بعيدا عن ادراكى وأنا صغيرة ، وسرعان ما خرجوا ، مشاعرى وقتها أننا فى عصر النهضة ، وكنا أيامها ندرس النهضة الأوربية ، وأنتقل بخواطرى من الثورة الصناعية وبدء نشوء القوميات هناك إلى مايجرى فى وطنى ، وكانت الثورة فى عنفوانها ، كانت الدنيا كلها تحت قبضة شبابى ، لم أكن أشعر ولا أحد آخر يشعر بأن هناك عقبة فى طريق أحلامنا ، وتوالى كل شىء بعد ذلك كالبرق لمعانا خاطفا وذهابا وانطفاء ، وإذا بأكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط تهزم من دويلة فى معركة جعلت منها المفاجأة كأنها غير متكافئة المرارة كلها . . الضياع ، الفشل . . آه إذن هو عصر الاضمحلال ! وجاءتنى عصور الاضمحلال فى وطنى و . . .

فقاطعنى مبتسما وهو يقول :
ـ الحمد لله انتهى كل ذلك . . إن ما رأيته هناك على الجبهة يؤكد أن التاريخ يكتب من جديد ، عايشت فاصلا منه وهو يولد أمامى ويصاغ نصرا يقلد على جبين الوطن الانسان المصرى البسيط يتحول إلى كائن أسطورى ، يقف فى قوة منفردا أمام مجنزرة أو دبابة يراها قادمة إليه فى اكتساح . . وينتظر فى ثبات ثم يطلق قذيفته ويستدير فى هدوء لأخرى وكأنه لم يفعل شيئا . وإذا قوى أحد أن يلحقه برشقة سهم أسود من أعلى برج مجنزرته ليستقر هذا السهم بعينه بين ضلوع صدره العريض . . . فأراه قبل أن يهوى يوسد نفسه التراب تطل من عينيه نظرة حب عظيمة لهذه الأرض . . وتتجسد ارادته

بقسوة فيمد يده يتحسس التراب كأنه يتعرف فيه الحناء العتيقة المليئة بالفكر والأسـرار . . . لا . . لايـامهـا لم يكن فى عينيـه حتى بقـايـا لنـظرة هلع أو خوف . . . فهذه الأرض بعينها منحته يـوما مـا من أيام الـربيع الحـالمة الحياة . . . عيناه . . تعرف معنى واحدا وأخيرا . . . أنه يرد أمانة تطل أم قصر بقاؤ ها ، فيروح أمامنا وعلى وجهه ابتسامة تسطع تعلم الخليقة الحكمة والإيمان والعطاء . . . تلك الثوانى التى كانت تفصل بين الميلاد والحياة والموت وتحدد النصر وحجمه . . . . مئات التفاصيل وملايين الخواطر أقرؤ ها على جبين القادة . . . العذابات الصغيرة الحنين إلى البيت والدفء بجوار الزوجة وفى أحضانها . . . لحظات القلق . . . فوران الدم والتحول إلى وحش بعد أن كان يجلس فى وداعة يحكى عن ابنه أو ابنته . .

قلت مقاطعة :

ـ كل ذلك سيضغط فى بضعة سطور من كتب التاريخ . . أحلم أن يثبت ذلك حيا . . !؟

ـ ولكنها ستظل تلك المعانى المضيئة التى تستمد جذوة شعلتها من زيتها الذى يضىء من دماء الشهداء . أولئك هم التاريخ صانعوه بكل حلمهم ويأسهم . .

وبلا رحمة . . . بلا هوادة هرب الحديث . . . انقطع الحديث فجأة . . . نظر إلى ساعته . . . ياويل اليقين المبـدد . . فقد أيقنت أنـه سيظل أسـير عوالمه . . أسير حياته الخاصة . . زوجته وأولاده ومتطلباتهم . . . بلا هوادة استأذن منصرفا . . . وضاع منى الإحساس بالمشـاركة والتكـامل والتـآلف وفكرت : ألا يمكن أن تنشأ صداقة بين رجل وامرأة ؟ قرأت كثيرا عن ذلك

وسمعت أشياء مبهمة ولكنى فى أعماقى موزعة . . فأنا على يقين من أنه يكذب من قال بامكانية صداقة بين رجل وامرأة ! إما أن يتحول إلى حب أو قطيعة وابتعاد حتمى . . . فى أعماقى أيضا إذا تعذر الحب فأنا أتمنى الصداقة . ولكن هل يرضى ؟ هل ممكن ؟ سؤال ظل طويلا معلقا يؤلمنى . . . يؤرقنى قبل أن تأتينى الإجابة منه .

عين رئيس جديد للتليفزيون . فوجئت أنه كان أستاذا لى فى الجامعة . فى البداية تساءلت كيف لأستاذ فى التاريخ المعاصر أن يدير جهازا كجهازنا هذا ؟ ولكن فوجئت به دارسا لكل دقائق عملنا . . كأنه كان قد أعد نفسه لذلك ، يعرف مشاكلنا واحتياجاتنا ، اختيار جعل عروقنا تنبض حماسا ورغبة فى العمل ، إنه يفهمنا ونفهمه ، سنختزل سراديب ودروب الشرح والتفصيل لنحصل على موافقة بعمل ما ، أو حل لمشكلة . . أية مشكلة . استهل أول اجتماع لنا بأن وضع يده بقوة وحسم ، ولكن بوعى وفهم على بذرة ما يمكن أن نسميه خميرة كل الأخطاء ، كانت كلماته منتقاة ، كان يشيد ويومىء للمعانى التى يريدها فى صدق وصياغة جميلة ، قال :

ـ إن الورقة الخضراء لا تصفر إلا بعلم كامن من الشجرة كلها ، وكذلك المخطىء لا يرتكب خطأه إلا بارادة مستترة منا جميعا .

وقال عن القوانين المعرقلة لحركة العمل وتدفقه :

ـ إنها بروج من رمال . . اهدموها ولكن برفق المحب .

وانطلقنا جميعا نعمل فالحب يغوص حتى الجذور المتشبثة بالأرض ويهزها حتى السقوط ، إن إيقاع كل شىء أصبح مختلفا ، اختلف المناخ الذى كنا نعيشه ونتنفسه ونسائم النصر غير سموم خماسين الهزيمة .

وأصبح مكتبه مفتوحا لمن يريد لقاءه ، وفوجئت ذات مرة بأننا مجموعة كبيرة وأننا زحمنا مكتبه الكبير ، هيام تجلس أمامه ، صافحتها بحرارة فقد مضت مدة بعيدة ولم نلتقى ، كنت أريد أن أنتحى بها جانبا وأسألها عن أخبارها ، ودخلت رئيسة لنا فأفسحنا لها مكانا . . الجميع لهم طلبات وهو مشغول بالتوقيع على بعض الأوراق ، ويرفع رأسه كل فترة ويلقى نظرة ترحيب ، وعندما فرغ مما أمامه تتابع المتحدثون . .

ـ نريد كادرا جديدا . . نتساوى به حتى ببعض دور الصحف فجميعنا أعلام . . بل لنا أعباؤ نا الأكثر بحكم طبيعة عملنا . . .

وتداخلت الأصوات مع الطلبات والاقتراحات . . أصوات نسائية وأصوات رجال وسعال ودخان معبق بالجو . . . وتحولت الجلسة إلى اجتماع صاخب ، ولكنه حميم يلفه السلام .

ـ نريد بدل ملابس فالمظهر يستنفد كل شىء . . لا بل بدل ماكياج . . . هذه طلبات فئوية . . . . نريد تعيين العاملين بالقطعة على درجة . . القناة الثانية تحتاج لتقوية وشكل يميزها والكاميرات لابد من تجديدها . . لا بل لابد أيضا أن ننظر للبرامج . . استضافة بعض الشخصيات المعينة . . ميزانية للكتاب حتى يقبلوا على المجىء إلينا والتعامل معنا . . كافيتريا .

ـ أنكم تتعجلون ثمرة النصر . . . كم أود أن أقول لكم أن ثمن النصر ما زال علينا أن ندفعه . . والجراح لابد أن تطيب فصبر جميل . . .

وأحسسنا بمدى مسئولية ما يقول ، فانصرفنا فى اقتراح البرامج الجديدة وكان من نتائج هذا الاجتماع أشياء كثيرة ورائعة كان ما يخصنى منها أنا

ومخرجى فكرى فؤاد أن نقدم برنامجا من رحاب الجامعة العربية ليمكن تعميق الروابط العربية من خلال الشخصيات العامة التى تزور مصر التى عادت كما كانت موطنا للكبرياء والشموخ وقلبا يحتضن الجميع .

تعجلنا تنفيذ البرنامج . . مبنى الجامعة العربية التى أراها كل يوم وأنا فى طريقى للعمل لم يحدث أن زرته أبدا ، أما زميلتنا وجدان الفلسطينية على العكس فقد كانت تعرف كل شىء فى مبنى الجامعة العربية . . السفراء ، المندوبين والموظفين .

صحبتنا فى أول يوم لتقود خطواتنا فى ذلك المبنى الشاهق بأروقته وردهاته الكثيرة . . . ضمد أكتوبر بعضا من جراحها ، ولكنها كمن كانت تستمرىء الألم ، فتقول :

ـ إن الألم يصهر الروح وينقيها ، أما الصبوة إلى النعيم فإنها تطفىء جذوتها ثم تسير ساخرة فى جنازتها .

أما الآن فهى شعلة متوهجة وحماس متدفق ، تعبيرات وجهها تغيرت زارت الابتسامة عينيها ، كانت تسحبنى من يدى تريد أن تقدمنى وتعرفنى على أكثر من شخصية عربية فى القطاعات المختلفة

منذ كنا صغارا علمونا كيف نشأت الجامعة وأنها المكان الوحيد الذى تجتمع فيه كلمة العرب . . هنا فى بلادنا تعلمنا كلاما جميلا عن الجامعة ، ووجدان ماذا تعلمت فى الخيام فى غزة ، فى غربتها عن الجامعة . . ضاع وطنها والجامعة قائمة . . ترى ماذا رضعت من ثدى أمها ؟ حقدا ؟ أم محبة أم ألما خالصا ، أو رغبة فى الانتقام . . . وانتقمنا كما اشتهت هى وأمها . . .

وتنبهت من خواطرى وهى تدخل بى إلى حجرة مزحومة ببعض الرجال العاملين بالجامعة

ـ هذا أولا مدير الإعلام الداخلى للجامعة . .

رجل ضخم أسمر له ابتسامة من وسعها أعادتنى لبيتى كأنى بين أمى وسلوى .

ـ وهذا مسئول الإعلام عن المغرب العربى . .

رجل أنيق يتبارى بياض شعر رأسه وفضية القمر ، وبسرعة لم أستطع أن أحدد أيها الغالب إشعاعا وفضية ؟!

ـ أما الشخصية العراقية ، فانه مدير ادارة الـ . . وابتلعت يده العريضة القوية يدى وهو يشد عليها كأن نبض عروقه يصل إلى أطراف أصابعى . . . وظل ممسكا بيدى وهو يحملق فى ، كنت عن يقين من أنه أما ينسج فى قصيدة أو ينوى قتلى . ونظرت إلى وجدان مستنجدة ، سحبتنى من يدى وهى تقول :

ـ وهذا فلسطينى . . إنه مدير مركز . . .

توقف بنظراته على وجهى وهو يقول بصوت جهورى خشن :

ـ ياهلا . . ياهلا بمصر ، مصر البطولة والنصر . .

أحسست بالفخر فرفعت دون أن أشعر رأسى باعتداد وصافحته بقوة وصدق .

وجدان تقدمنى لشخصية أخرى . . ليبى لأفاجأ به يقول :

ـ أنا مشغول مشغول لا وقت لدى . . إلى يوم آخر . .

وقبل أن أوقن أننا لم نطلب منه شيئا كان ينسحب من أمامنا ووجدان تبتسم فى هدوء . . وسار متصلبا كمن يبتلع رمحا . .

لمحت ابتسامة وجدان فكدت أنفجر ضاحكة فحذرتنى بعينها ، فتحولت الضحكة إلى ابتسامة ، ولم تنس وجدان أن تقدمنى لسفير السودان الذى ابتسم وهو يصافحنى بإخلاص وبتأن تمتم :

ــ عندنا اسمك كثير . . الست مها . . إلا أننا فى السودان نضيف الألف واللام فأنت عندنا المها . . . أنت منا

كان كريما . . كان فى أعماقه يرقد النيل والتاريخ المشترك والحلم الواحد .

السياسة لا قلب لها ولكنها جاذبة لأنها بلا قلب . . لأنها مغامرة تبيع قلبها إذا لزم الأمر . . . كان إحساسى بذلك بعد أن حضرت أحد الاجتماعات فى الجامعة العربية . . . كنا الجميع كل بدوره يعرض مشروعه ، وكل يتصور أن مشروعه هو الأوحد وهو الأحسن وهو الأبقى .

وكانت المشاريع أمل الغد ، والذى كنت أراه حتى تلك الفترة أملا لا حدود له ، أملا يفترش الأرض العربية كلها . . . نجلس ونستمع مبهورين وأحس أنفاسى لاهثة سريعة ، ذهنى مجهد لا أستطيع متابعة كل هذه الإحصائيات ، فالكلام هنا بالأرقام . . . والأرقام كثيرة وكثيرة ، ودراستى أدبية ومعرفتى بالنقود والإحصائيات والاقتصاد تتقلص وتتراجع بى إلى معرفتى بالقروش القليلة التى كنت أدخرها من مصروفى لأعيدها إلى الجيب الصغير الداخلى لبدلة والدى دون أن أقول له . وبفعلتى هذه كنت أشعر أنه أصبح أغنى الآباء . . . هذه المشاريع هى فرحى الذى يزهر فى

أعماقى ملونا الصحارى والوهاد والجبال الصخرية والوديان البور بالخضرة . . المبانى وأعمدة الدخان تنطلق فى الفضاء من أبراج الأفران فى المصانع العملاقة لتمحو العجز والضياع . . أرى ذلك الحلم الذى يبنى المدارس على امتداد بلادى من أغادير وفاس غربا الى دبى والبحرين شرقا . . المستشفيات . . الحدائق . . تماثيل رخام على الترعة وأوبرا . . . .

* * *

وكانت تلك المشاريع جرحى أيضا . . هى فى حاجة إلى أرقام فلكية من النقود . . والنقود فى البترول ، وممثل وطنى عندما يأتى دوره للحديث عن مساهمة وطنه فى التمويل يعتذر بقلة الإمكانات أو ضعف المساهمة ، ولكن المساهمة بالطاقة البشرية . . . العقول المفكرة والخبرة الفنية العميقة . . . كان يبدو خجلا كأنه يقدم أقل القليل . وكم من مرة منعت نفسى من الصياح لأقول إن ما تقدم أثمن من كل ما يقدمون من كل تلك الملايين التى يمكن أن يدفعوها . . . . مال لا مزية لهم فى الحصول عليه و لافضل . . . هو فيض الأرض ونبع عطاء تربة الوطن الكبير . . ألا فليتركوا ملايين الجنيهات أن تقوم بعمل أبناء بلدى .

وأسأل عن مصير الاتفاقات الكثيرة . . . آمال الغد . . المشاريع العظيمة ، وأبدأ عملى مع الموظفين الذين سوف يرسلون هذه الأحلام إلى كل مكاتب الجامعة فى كل أنحاء العالم ، ويمد لى أحدهم ورقة زرقاء بعينها . . أعرفها الورقة هذه ، كانت موجودة ضمن أوراقه التى يدون فيها ملاحظاته مثل الآخرين وهم يستمعون للمشاريع بالإحصائيات . . . آخذها بأصابع مرتجفة ، فإن تقديمه لى هذه الورقة من ورقاته الهامة ، رفعنى من الأرض إلى

السماء لبرهة ، فأن الموظف الكبير يضعنى على مستوى المسئولية . . الموظف الكبير يضعنى أمام فكره ويطلعنى على أفكاره عن ثقة ، وأتناول بأصابع مرتجفة راقصة ورقته الزرقاء . . . وللحظة مرت غمامة بعينى ، ولما كنت على يقين بأننى لاأضع نظارة على عينى ، ووعيت أننى جالسة أمامه وأنى أقرأ فى ورقته الزرقاء التى كانت تقول : إليك . . . .

يامن نحوها شعرت بالحب
يابهجة الروح والقلب . . .
ياتفتحا كالزهر . . .
وترقرقا كالماء فى النهر
تراودنى خواطر البوح والصمت
معذبتى . . . أجيبى . . أنت ! من أنت ؟
يعذبنى منك الصدق والهجر
ياعاجية الجيد والنحر . . .

ولم أكمل باقى كلماته . . تظاهرت بأن الكلمات استغرقتنى . . أفكر فى الغرض الذى من ورائه ! . . أنا أبحث عن القرارات وتنفيذها وعن ضمان سير حلم الغد . . . لم أكن مصدقة لما جرى ربما المصادفة أوقعت هذه السور بين أوراقه . . . هناك خطأ لاشك . . . . هو تشابه ألوان الورق ، قلت وأنا أعيد إليه ورقاته :

ــ أنت شاعر ياسيدى . . . وهذا شأن أشقائنا العرب . . وانتظرت لأرى هل هو مخطىء ؟

بياض شعره الذى يذكرنى بضوء القمر فى قريتنا ، ودخان سيجاره الدائم الاشتعال يعبق الغرفة مختلطا برائحة عطر نفاذ على مكتبه زهور بيضاء لم تكد أكمامها تتفتح أزاح الزهرية ليرانى بوضوح أو ليرى وقع كلماته :

ـ الكلمات من أجلك !

ـ من أجلى أنا ؟

خرج صوتى مضطربا ومدهوشا كاد أن يكون همسا :

ـ نعم فهى لك يا ملهمتى . . .

وكدت أصيح به أى إلهام هذا الذى هبط عليك ؟ ظن صمتى انتظارا لباقى كلماته ، واصل حديثه هامسا :

ـ وهناك كلمات أخرى كتبتها لك . .

ولم يمهلنى . . . سحب درج مكتبه الأنيق فبرقت أزرار قميصه قاسية . . وأخرج أوراقا أخرى زرقاء قدمها لى كأنه يقدم كنزا . . . . وقرأت كلمات أخرى :

أقسمت ألا أراك
أورثتنى الجنون فى لقياك
ليتنى لم أرك ولم تتحدثى
ضيعت أمسى والغد
ياويلى من غد
ونسيت حتى موعدى
وبطعن قلبى لم تترددى

* * *

كانت نحو خمسين بيتا من الشعر ، وبعض أبيات سبق لى قراءتها فى قصائد لبعض الشعراء ، تحسست عيونى فأنا موقنة أن ما أقرأه شعر فى ورقة زرقاء وأن الأمر يحدث فى الحقيقة لا وهما أو تخيلا . . . . ياربى . . . العبور غير المخرج فكرى فؤاد . . . فمن أى سماوات هبط على هذا الشاعر المدعى ؟ ولم تكن أمامى إلا كلمات مجاملة زائفة لابد أن أسوقها إليه ، فالرجل ديبلوماسى كبير ولا حيلة لى إلا تلك الكلمات التى ظللت أبحث عنها . . ولم يسعفنى لا لسانى ولا ذاكرتى إلا بكلماتى السابقة .

ـ أنت شاعر ياسيدى وهذا شأن العرب . . . شعر الفطرة . .

كنت أريد استنفاد الدقائق الباقية على حضور مخرجى الذى هبط على كرحمة من السماء . . . . وما أحببت يوما حضوره أو رؤيته مثل ذلك اليوم ، كان منقذى ولم أتوان من أن أمسك بتلاتيب اللحظة فلملمت الورقات بسرعة وقدمتها للمسئول الكبير فلم يستطع أن يرفضها ، بطرف عينى لمحت الغيظ واضحا على قسمات وجهه وقد انطفأ بريق عينيه ، وببراءة شديدة كان . رى يضع أكياس الكهرباء فى الحجرة . . فقد كان يعلم من المرة السابقة قصة الشعر والورقات الزرقاء ، وهاهو قد لمحها مرة أخرى . . . تبسم لى بسمة ذات معنى . وظل يصدر تعليماته لطاقم المصورين ولمساعده .

ـ يامدام مها هل حددت أسئلتك ؟

ـ نعم . . . تقريبا . . تقريبا . .

ودارت عين الكاميرا الفاضحة ونزلت الشمس من عليائها وتكومت داخل الكاميرا ، وبدأ الحوار بيننا والذى انتهى بتصريح قال فيه أنه بعث برسائل

تحمل التوصيات والقرارات لمكاتب الجامعة فى أنحاء العالم ، وتبسمت بينى وبين نفسى ، ياخوفى لو كانت رسائل زرقاء أيضا . . .

وعلى إشارة مخرجى النهائية كنت أقدم كل الشكر والتمنيات بالتوفيق ، وأسرع من البرق كنت أشترك مع زملائى فى جمع الأسلاك والأكياس . . أجرى إليهم . . أحمل عنهم أثقل كاميرا وأضخم حقيبة . . . أستجير بهم . . . ويدق عقلى المجهد . . ودلفت من الباب دون أن أودعه يدا بيد واكتفيت بإيماءة متعللة بثقل ما احمله وتمتمت قائلة :

ــ باسم تليفزيون مصر العربية أحييك وأشكرك . . وشعرت بالخلاص من ثقل الدقائق التى أمضيتها مرغمة . . . وهبطت الدرجات القليلة وأنا أدندن بشطر من قصيدة لى :

كنت معى وعلى وجهك ظلال هوى . . .

وذكرتنى الكلمات بخالد ومحسن . . . الآن يبدو لى أنهما أصبحا صنوين لا يتصارعان داخلى . . يتعايشان سويا ، خالد بذكرياته الحلوة التى شكلت فجر حياتى الزوجية ودخولى إلى ذلك العالم من المسئولية الساحرة . . وفجيعة الرحيل والترحال الذى سبقه والذكرى الباقية . . والصغيرة سلوى التى تحمل نظراته وعينيه . . . ومحسن بحضوره الخصب يبعث فى ذلك الإحساس بالأمان طالما أنه ما زال حيا حتى ولو كان بعيدا . . حتى ولو لم أعد أراه كثيرا ، فأنا أشعر أنه سندى فى أى مشكلة قد أوجهها . . . . عنده أجد النصح والتوجيه والكلمة الصادقة المجردة من كل غرض . . . ثقتى به مطلقة من أين أتت لا أرى ولا يهم ولكن ما يهم أنها ثقة كالإيمان كاليقين الروحى بدون رؤية . فنقاء النفس كمياه البحر النقية ، شفافيتها تعكس لك القاع

والأعمــاق . . فتـرى اللؤلؤ والأصــداف . . . وهكـذا كــانت أعمـاق محسن . . . تجاور الإثنان فى أعماقى . . . خالد كشجرة السنديانة العتيقة قوة ورسوخا ومحسن كشجرة السرو خضرة وظلالا وارفة .

لن أذهب للجامعة العربية مرة أخرى ، هكذا قررت وأنا أقسم لابنتى وأستمد منها دفئا لا أجده إلا عندما أضمهـا إلى صدرى وتلعب فى سلسلة النصر التى تحتضن عنقى والتى أهداها لى مخرجى عقب عـودته من عمـل إعلامى فى الجبهة . . كانت رصاصة مسدس فارغة وقطعة من شظية نحتت على شكل هلال . . أصابعها الصغيرة تمسك بها . . تشدها تلثمهـا بفمها فآخذها فى صدرى لتنام .

وعندما أخبرت فكرى فى اليوم التالى بقرارى . . قال لى بعد تفكير :

ــ لا تضيقى به أو بأمثاله إنها طبيعة العربى الإنفعالية ، يكتب أشعـارا ويلقى خطبا ويتشنج سياسيا . . متقلب كطقسه ، شاعرا فى الليل يستوحى عرائسه . . وعندما تسطع شمسه مبهرة يفقد شـاعريتـه ، ومع تبـدد تلك الأحلام الليلية تعود له خشونته وجلافته الصحراوية . . لا يبقى على حال كظل النخلة الدائمة التحول . . وتساءلت : ما الذى حدث وما الذى جرى لمخرجى حتى يبحث عن أعذار للناس ؟! لاحظت فى الفترة الأخيرة تغييرا طرأ عليه ، فلم يعد يحاول أن يبثنى هواه . . . تغيرت طريقة حديثه معى ، أصبح يسأل عن سلوى وعن والدتى ، بدا أكثر إنسانية ، يبدو أن ما مررنا به جميعا بعد رمضان وما أحسه عقب عودته من الجبهة قد زلزلت أعماقه . . أحيت فيه أشياء كانت دفينة وأماتت أشياء أخرى . .

بعدت عنه وعن كلماته وإن كنت أفكر فى التحول الذى طرأ عليه . . كنت سعيدة بذلك . . وفجأة دخلت علينا هيام ، وللحظة حسدتها فهى بعيدة يحميها حجابها ويضفى عليها ملائكية وسموا . . . وهل يجرؤ أحد . أن يعبر فى خاطره أية أحاسيس يمكن أن تخدش ذلك الطهر ؟! فى حضرتها تطفو كل معانى العقل والاتزان . . . تحيطها هالة نورانية ووقار يسر بل ايماءتها وحركاتها كما يسربل ثوبها الفضفاض جسدها كله .

جلست على أقرب مقعد وهى تتنهد ، كان الإرهاق يستبد بها وقطرات من العرق تلمع على جبينها المشرق بالرغم من برودة الجو ، أشفقت عليها . . هذه الزهرة ما بالها ؟ ذكرتنى بكلمات رئيس التليفزيون لا تصفر الورقة الخضراء إلا بعلم كامل من الشجرة كلها وسألتها :

ــ مالك . . مرهقة ضيقة الصدر كما يبدو لى ؟

وقبل أن تهم بالإجابة عن سؤالى . . انبرت إحدى الزميلات تسألها :

ــ ما رأيك ياهيام . . إنهم يطالبون بحكم الشريعة ؟؟

قالت هيام من فورها :

ــ كل إنسان يستطيع أن يتكلم بل ويطالب بما يراه وبحرية الآن و . . .

ولم تمهلها نفس الزميلة إذ قالت :

ــ ولكن يبدو لى أن بعض الناس يتعسفون فى طلبها بفظاظة و . . ورفع زميل وجهه من بين أكوام الأوراق التى كان منهمكا فيها وهو يقول :

ــ ليست الفظاظة فحسب ولكن دون أن يجهدوا أنفسهم بالشرح أو التفسير . . فالشريعة كلمة فضفاضة وتحتاج إلى انكباب طويل أو دراسة واستخراج قوانينها . مسببات هذه القوانين ومخارج لنفس هذه القوانين ،

وليس ضغطها فى معنى واحد أو شكل واحد . قالت هيام بصدق :

ـ فعلا يجب أن يفكروا فى كل شىء . . ولكنى أخشى أن يحتجب الإنسان داخلهم . . وتبقى الفكرة فى جفافها عارية من رقة العاطفة التى ينبغى أن تحتضنها .

وعندما تحدثت مع محسن فى أمر هيام مرة أخرى وموضوع الشريعة التى أصبحت الدعوة لتطبيقه بعد العاشر من رمضان هو موضوع الساعة قال لى :

ـ أعلم حماسها فهى أكثر عمقا وصدقا من حماس الذين انطلقوا بعد كلمة الله أكبر فى أكتوبر . .

ـ أنا لا أتحدث عن الحماس ومدى عمقه !

ـ أعلم ذلك . . . الشريعة ، نعم فالإسلام شمولى النظرة والقرآن آخر تفسير للكون . . وهو الكلمة للفصل . . وقاطعته :

ـ ما زلت لم تصل إلى ما أريد . .

ـ أعرف ما يشغلك . . كونى مثلى ، إن نزعتى الدينية عناق بين رسالات السماء ، وهكذا يقول الإسلام ، القرآن هو النظرية والسنة هى التطبيق . . . الرسول كان خلقه القرآن ، وكما قيل عنه أيضا ﷺ كان قرآنا يمشى على الأرض .

ـ وضحت الأمور هكذا ، وكما قلت أن أوتار القيثارة مشدودة على افتراق . وان خفقت بلحن واحد ، وأعمدة المعبد على انفصال تقوم . .

ـ وأكمل قولك أو معناه وأقول أن شجرة السنديانة والسرو لا تنمو إحداهما إلا فى ظل الأخرى . .

وكدت أصيح به ، ولكنى حققت ذلك داخلى ، فأنت وخالد تظللانى

بظلكما . . فهو كالسنديانة وأنت كشجرة السرو . .

فى كل يوم دائرة معارفى تتسع وتتسع . . فنانون ومخرجون ومنتجون وأدباء ورياضيون . . من منهم لايتعامل مع التليفزيون ؟

هذا المكان الرائع الذى يموج بمواهب عديدة ومتنوعة . . شيطان الفن مسهم جميعا فأجد نفسى مع مجموعة من البشر اذا أحبت فإن حساسيتها شديدة وعطاءها متدفق كنهر بلا سدود ، أما اذا كرهت فإنها تطوع ذكاءها فى اختلاق الشائعات والمقولات فنحن مبنى المقولات الصادقة والظالمة ، يصوغونها كأنما يصوغون عملا فنيا .

تجاور جهازى الإذاعة والتليفزيون أنبت بينهما تنافسا يشم عبقه فى أرجاء المبنى ، يتسكع كالدخان الثقيل فى الزوايا والأركان فى الردهات وفى الحجرات المغلقة ، فى التليفزيون يتبدى التنافس صريحا كاشفا عن نفسه كأنه فارس يتوسط الساحة متحديا من ينازله ، أما فى الاذاعة وان كان أكثر ضراوة إلا أنه ناعم الملمس كالحرير خافت الصوت كأنثى ، وان كان الضرب فى الظهر ومن تحت الحزام .

فى البدء لم أكن أعرف الفروق الدقيقة التى بين من يعملون فى الجهازين ، ولم يكن ليتاح لى ذلك ــ حتى وأنا أعمل فى المبنى الذى يضمهما معا ــ الا بعد أن أصبحت أقدم برنامجا عن الجامعة العربية بعد العبور ، حيث كنت التقى بهم هناك ، وعيهم السياسى أعرق ، يبدو لمن لايعمل معهم عن قرب وهم يلقون بالكلمات هنا وهناك وبالاستنتاجات والتوقعات . . . أن كلامهم جزافى بلا معنى أو قصد . . . لديهم قدرة خارقة

على الربط بين الأخبار والمعلومات والأحداث ، فيلمسون باستنتاجاتهم كبد الحقيقة كما يقولون ، ولكنهم لا يتباهون بذلك كالديكة الرومية ، كان تواضع العارفين ، وكبندول الساعة يذهب عقلي بالمقارنة بينهم وبين زملائي في التليفزيون فأقف على الفروق الدقيقة ، ولكم تمنيت أن يخفف زملائي من نبرتهم وأن يكفوا عن صياحهم ويكتسبوا شيئا من تلك الخبرة المعتقة في أقبية التجربة والزمن ، حتى يصلوا إلى حرفية الآخرين ومهارتهم ، ولكن هيهات ذلك . . . إن بصيرة هذا لا تعبر ذاك جناحها .

في داخل الجامعة العربية بردهاتها الأنيقة وبماشيتها وبسطها السميكة التي يغوص فيها حذائي ، وأضوائها الخافتة غير المباشرة والعالية حيث أستطيع أن أفتح عيني مباشرة في قلب الأشياء بعيدا عن شموس الكاميرات التي تحرقني أضواؤها المبهرة ، هناك كنت التقي وزملائي الجدد المتواجدين هناك دائما ، أعرض عليهم أسئلتي واستأنس برأيهم . . درايتهم كبيرة بكل ما يجري هنا ، وإيقاع العمل هنا يختلف . . الأسئلة الفورية بدون تحضير ، حضور البديهة وسرعة التصرف ، المعرفة بالشخصية وميولها وكثير من الأشياء الأخرى ، أما عملي في التليفزيون فكان محسوبا ومعدا من قبل . . سيناريو دقيق ، كل شيء فيه محسوب حتى شعر رأسي حتى غمضة جفني ، وكنت ممتنة بمساعدتهم وحكمتهم التي لم تدعني في بحر الحيرة ولكن قادتني إلى عتبة فكرى أننا بأرستقراطية مهنية رفيعة ، فهم إذا أرادوا كانوا مخلصين .

وأدور حول نفسي دورتين بعد أن تركتهم ، وقبل أن تنقطع أنفاسي كنت وجها لوجه مع صاحب الورقات الزرقاء . .

ــ ياهلا ياهلا ياست مها ! لماذا لا نراك ياذات الـ

عرفت أنه سيقول : ياذات الدلال فمن أكثر المواقف جدية يستطيع هذا الرجل أن ينتحى بنفسه جانبا ، يصطنع لنفسه خلوة ترفع عنه الستائر فيفر إلى ورقاته الزرقاء . . وقد قالها فعلا كما توقعت .

ومهما تحدث المسئول ومهما قال فأنا مستمعة ، وهل أملك غير هذا ؟ مستمعةٌ كنت أفكر والفكر طير فضاء يستطيع أن ينشر فى قفص الألفاظ آماله ، ولكنه عاجز عن أن يطير ، فأقف مزروعة أمامه وكعب حذائى من عمق غوصه فى البساط يؤكد لى أنى سأظل مزروعة هكذا أمامه طويلا .

أعد الثوانى والمكان يموج بالعديد من العاملين ، فما ذنبى أن أقف مزروعة أمامه يعاتبنى مرة ويلح فى السؤال أخرى فأهم بأن ألقى بالميكروفون وأبكى أو أجرى ، فأسمع صوت محسن نبراته ملتصقة بجدار أذنى كأنه يقول :
مها . . . مها . . إن الشر ما هو إلا خير أضناه ما كان فيه من جوع وظمأ .
وأخاطبه فى خيالى :
لم أعمل على أن يجوع هذا العربى أو يظمأ ، أم أننى أجسد له حرمانه أم أننا مهما ركبنا خطواتنا فوق بعضها لنتربع بعد آخر سلمة فالشعور بأننا فى السفح لا يفارقنا ، ماله ومالى فليستورد لنفسه أجمل نساء الأرض ليرتوى إن كان ظمآن ، فما أنا أكثر من إنسانة وحيدة أصدق ما أملكه وأحبه ابنتى .

يهرول ورائى ويعرض على أن نقضى شطرا من ليل قاهرى فى أى مكان ، فى المقطم أو عند سفح الهرم أو فى . . .
وأنا تفرحنى وتبكينى كلمة الهرم ، لم أشعر بهول ما يطلب إلا من لفظة

الهرم ! . . . تراني أسير معه على ثرى هذه الأرض المحرمة التي استقبلت فجر الضمير البشري وكانت مهدا للنبيين والحكماء والشعراء والفنانين الذين من عمق حبهم للحياة ، وصلوا للآخرة والبعث ، فكان الدين والفن والفلك وانبعاث كل المعارف الإنسانية .

أسير معه فيها ليقول لي أجدادي ، لا جدال أن المتعة أنشودتها الحرية . . ولكنها ليست الحرية أية حرية !

وشردت عن زرقة عينيه الداكنتين فقال :

ــ فيم تفكر المها ؟

قلت على الفور :

ــ أفكر في الله ؟

ــ الله . . ! لفظ الجلالة . . مدلوله قوة وأساسه يقين وظاهره خارق وباطنه مجهول .

ــ الله ليس مجهولا لي . . إني أعرف الله . .

وكأنما خشي أن تقوده كلماتي بعيدا عن مراميه وتلقي به في حقول الغام المحرمات فقاطعني :

ــ المهم لك ورقات عندي . .

وسلمني ورقاته والمكان يموج بالمهمات . . لا يهم فالكل يعرف أنها ورقات عمل ، فقبضت عليها بأصابعي . . ملمسها شغلني عن كلماته ونظراته . . وممعنة في التنائي عنه جعلتها كمناديل الورق أجفف بها عرق أصابعي . . نظراتي تتحرك في سرعة أبحث عن مخرجي ، فكري المشغول دائما وراء أكباس الإضاءة ، مشغول يربط ويربط اصطلاح تعلمته من

الإذاعيين وهو يعنى أننا نربط مواعيد عمل الغد وبعد الغد ثم ننحشر فى عربة مثل عربة نقل الأثاث ، ولكنها بلا تباع يدفعنى بيده فى ظهرى لأصعد ، فأنا صاعدة بنفسى أتخير أو يختار لى أنسب مكان خلف السائق مباشرة وبجوار الشباك .

ونعـود إلى المبنى وشريط سـريع عبـر الطرقـات يصحبنى لا يتوقف عن الدوران ، الشريط يلازمنى من يوم نكستى وأنا أتراجع مخذولة بعد أن أسقطوا صورة خالد عن الجدران . . كـانت لحظة تصـورت أن الحياة لفـظتنى من حسـاباتهـا ، ولم أكن أدرى وقتها أن النصـر والانتصارات ستـلاحقنى بعد ذلك ، ألم يكن لى كل يوم نصر جديد . . نصر على الجبهة هناك على جند العدو ، ونصر هنا على أزرق العينين ميت النظرات . .

وتوقفنا أمام باب جديد اسمه باب الإذاعة الخارجية ونزلت مسرعة وأقدام الزملاء خلفى تسكب فى أذنى لحنا غير مرتب . . سيمفونية من صنع أقدامهم وآلاتهم . . ولكنها سيمفونية منتصرة . . . كنت أشعر أننى صفعت بصمتى ورفضى وجه الصلف والغرور الأزرق العينين . . سعادتى نغم موقع يضبط قراره احتكاك الأحذية بخطوها الوئيد لا . . لا تكفى أن تكون تلك النبرة منتصرة يجب أن تكون أيضا موقعة .

● ● ●

لم تقبل أن تزيح وردتها الحمـراء من شعرهـا القصير ، صغيـرة كطفلة ومشاغبة كقـطة ، كانت تقفـز بين الممـرات وداخل كـل استوديـو تنظر فى فضول ، وتندفع فى الحديث بعفوية قروية .

كلفتنى المديرة أن أدربها ، كانت تريد أن تعرف كل شىء . كالموجة الثائرة تريد أن تأخذ من شاطىء المرفأ كل ما لديه دفعة واحدة وبلا روية ، ألق الشباب فى محياها وتفجر الربيع ينوء به جسدها الريان المطواع لحركاتها الفجائية . . !

ومع التعقل الذى هبط على مخرجى فكرى فى سلوكه معى ، استطعت أن أرقبه وضبطته مرات يختلس النظرات إليها ، ومرة سمعتهما يتهامسان ، وبعد أول أذاعة لها على الهواء أعلنت خطبتهما كأنهما كانا يؤقتان لذلك احتفالا .

جاء يوم زفافهما سريعا ، كنت سعيدة بهما . . تلميذتى ومخرجى ، ذكرنى ذلك بيوم زفافى وخالد ، رقصت نفس الراقصة زين تمنيت من قلبى أن يكون حظهما أفضل من حظى ، وذهبت لأهنىء فكرى فوجدت رباط عنقه غير سوى ، وبدون أن أدرى وجدت يدى تعدله . وصاحت بى العروس :

ــ وأنا طرحتى غير مستقرة على رأسى . .

لحظات مفعمة بالحب منسوجة بالتآلف والحنان أنستنا كل وحشة الوحدة كأننا لم نعانها أبدا .

وتتابعت الأيام سراعا أحملها وتحملنى إلى مرافىء القلق والاضطراب بالرغم من كل تلك السعادات الصغيرة التى بدت كقطرات تسوح فى رمال ساخنة ، ندر جلوسى إلى مكتبى وبعد الزمن بى عن أوراقى .

وجاء يوم مناقشة رسالة محسن عن الحلاج ، فى يومها طالعتنى الجامعة بقبتها الشهيرة ، كانت السماء بلونها الأرجوانى ساعة الغروب تشكل خلفية مهيبة . . وعادت بى الذاكرة إلى أيامى هنا ، مبنى كلية الآداب عن يمينى وعن

يسارى كلية الحقوق ، برج الساعة ، الدرج الرخامى المتسع ، كل شىء على حاله لم يتغير منذ آخر مرة ، كشك السجائر لجمعية المكفوفين ، نفس أشجار النخيل والمماشى ، رائحة المكان فترات الانطلاق والتلمذة والمحاضـرات وتبادل الكشاكيل التى تضم بين بعض صفحاتها زهورا جافة ، يالها من أيام ، كان أبى ما زال حيا يصول ويجول هنا بين المدرجات يخرج من محـاضرة الى حجرته ثم إلى مدرج آخر . ولم أكن قد تزوجت خالد حتى لم يكن فى أفق حياتى ، كانت أياما بلا مسئولية سوى المحـاضرات والاستـذكار ، سبقت بخطواتى زملائى من التليفزيون والذين حضروا معى لنشهد محسن ونسمع مناقشة رسالته ، اندفعت فى الردهة الداخلية لمبنى كلية الآداب ، طالعتنى سبورة تحمل إعلانا عن الرسالة والأساتذة الذين سيناقشونه ، كانت تدفعنى انفعالات شتى . . ذكرياتى الخاصة فى الكلية وذكريات أبى . لو كان حيا لكان حتما مشرفا على هذه الرسالة فمن للحلاج غيره ؟! رغبتى فى مشاهدة محسن كبيرة وبذلك الفضول الكامن فى أعماقى كالنار المتأججة تحت الرماد لأن أرى زوجته !!

وانسالت على ذكريات وانفعالات متناقضة ، عندما رأيت عم عبد العليم فراش قسم الفلسفة ، إنه كما هو لم يتغير فيه شىء حتى جلبابه ومعطفه الذى رأيته عليه عندما دخلت الجامعة أول مرة ، وربما كان يلبسه قبل ذلك بسنوات أصبح المعطف هو عبد العليم . لو خلعه مرة لأ نكرته ولأ نكره الجميع ، لم يعرفنى لأول وهلة فصافحنى كما يصافح مئات الطالبات ، وعندما علم أننى مها صاح مرحبا . .

تركته مع كلماته وذكرياته عن أبى وتقدمت لباب المدرج الذى ستناقش فيه الرسالة . . استأذنت من بعضن الطلبة الذين كانوا يزدحمون على مدخله . . . نظراتى تسبق خطواتى للداخل ، لم يكن مهما أن أرى محسن لحظتها بالرغم من شوقى إليه ، فسأراه حتما وسيرانى . . سنلتقى على البعد وستمتد حبال الأحاديث الصامتة بيننا بالرغم من عشرات العيون والآذان . . كنت أريد أن أراها هى ، بعيونى أنبش عنها وسط هذا الحشد من الحاضرين سيدات ورجال وطالبات ، والتقطتها من بينهم جميعا ، هى الوحيدة بين الحاضرات التى تصحبها ابنتاها ، كانت لهما منه أنفه الدقيق وعيناه الواسعتان وسمرته الداكنة ، لم ترنى وإن رأتنى فلاشك لا تعرفنى . . . كانوا فى مواجهتى وكانت مشغولة بالنظر إليه هو . . . كأن لا أحد هناك سواه ، نظراتها تنتقل بين حشد الحاضرين فى سرعة لتعود وتستقر على محسن الذى رأيته الآن يجلس على مقعده فى المنصة ، كانت تميل إلى البدانة قليلا ، ملابسها غالية الثمن وإن لم تبد جميلة عليها ومظهرها العام لا يعيبها شىء ولكن طريقة تصفيف شعرها وأن كانت حاضرة توا من الكوافير لم تكن مناسبة مع استدارة وجهها الريفى ، ومن بين ثنايا حركات يديها ورأسها يشع منها شىء ينم عن مسحة الريفية التى بدأت تنسى ريفيتها من طول مكوثها النسبى بالمدينة . . تتفرنج على خطوات حثيثة وقلقة كأنما قذف بها فى عالم غريب عليها ، حقيبة يدها وإن كان لونها يتناغم مع الفستان ويتشابه مع حذائها إلا أن حجمها لم يكن مناسبا لكبر بطنها الذى أفسده عدم عنايتها به بعد مولد البنتين . . كانت امرأة عادية . . وبحركة لا شعورية وجدت يدى تتحسس خصرى كأنما أطمئن على نحوله ، كنت منتبهة لكل شىء حتى خطرات الأفكار داخلى . . ردود فعلى ، ذهنى يقظ حاد فى يقظته . . كأنما كنت أشرع فى يدى نصلا مصقولا ومرهفا أرقب

ما يجرى حولى . . وأرصد انفعالاتى ومشاعرى ، من النظرة الأولى تجاهها أحسست بانتصارى عليها ولا أدرى لم ضقت بالذات من اصطحابها لابنتيها ـ بالرغم من رغبتى فى رؤ ياهما ـ ووجدت فى ذلك تملقا رخيصا منها لمشاعر الأبوة لدى محسن . . هى فقيرة إذن فى أحاسيسها وفى قدرتها على العطاء ، ومن أين يتأتى لها ذلك وقد قبعت منذ زمن فى البيت بعد الإعدادية فى انتظار الزواج . . ولتتحول إلى شركة قطاع خاص لإنجاب الأولاد ؟!

اخترقت الصفوف وجلست خلفها فى موقع يسمح لى بمشاهدتها عن كثب ، كأنما لم تكفنى انطباعاتى السريعة عنها . . كنت أريد أن أعثر على مواطن إعجاب محسن بها ، وتعمدت أن أكون وحدى بعيدة عن زملائى لأتحرر من أى قيد وأنا أعايش تلك اللحظات التى انتظرتها بكل فضولى : وقلت لنفسى هامسة : إن اختيار محسن لها كزوجة يجعل المقارنة بيننا بالرغم من الفارق الواضح أمرا واردا . . لابد أن يكون خيال محسن قد أجرى مثل هذه المقارنة ، كنت أعرف أنى أمثل عنده الأرضية المشتركة ، نفس الاهتمام بالفن والحياة ، كنا عالمين يتكاملان .

متعمدة لأول مرة أرسلت بنظراتى الواثقة إلى محسن لتلتقى بعينيه كأنما كنت أتعمد أن يجرى المقارنة هنا والآن فى الواقع بعيدا عن الخيال . . أنا هنا وهى أيضا وليرانا كلينا معا دفعة واحدة ، وفوجئت به يهرب بنظراته بعيدا عن جذب عينى له ، وأنا التى كنت أحسب وأحلم بلذة مخاطبته على البعد وسط كل هؤلاء ، سنثرثر معا ويمتد التواصل بيننا بالرغم عن زوجته وبنتيه أيضا ، أيهرب منى ؟! ربما لا يريد أن يجرى المقارنة ، أو هو مكتف بها ويجد فيها مالا يجده فى أية امرأة أخرى ؟ أى امرأة وليس مها ، وهمست لنفسى : لم يركبك الغرور ؟ ألا تثقين فى ذوقه ؟ . .

مكثت أرقبها لفترة ، كانت بادية الطيبة ، وإن لم تكشف لى مراقبتها عن سر ارتباط محسن بها أو تلك الخصائص الكامنة فى أعماقها والتى وضع محسن يده عليها . . لاشك أن لديها شيئا غير تلك المظالم التى صببتها عليها لأول وهلة عندما أجريت تلك المقارنة السريعة بينى وبينها ، والتى جعلتنى منتفخة كبالون ملىء بغاز الهيدروجين ، أحلق فى تعال وغطرسة جوفاء على إنسانة لم تسىء إلى ، ولا ذنب لها أن أحببت أنا زوجها ، لقد أعطت له من الحب والرعاية ما استطاعت أن تعطيه . . على الأقل ساعدته حتى أنجز رسالته لم تكن مشاعرى وأحاسيسى مقتنعة بما ذهب إليه تفكيرى المتعقل ، فعاودت النظر تجاه محسن الذى هرب مرة أخرى بنظراته بعيدا عنى . أتراه يخاف منها ؟ لا أظن ذلك ، ألا يمكن أن يكون لهربه مغزى أو إشارة واضحة كان ينبغى لى أن أفهمها تقول لى : علاقتنا سر بيننا ولا ينبغى لزوجتى أن تعرف ! الإيحاء بخصوصية العلاقة وإن انبعثت فكرتها منى أنا ، إلا أنها سرت بنشوة اقشعر لها بدنى كله فى خدر لذيذ ، كان كإحساس المقرور الذى ينتفض جسده عندما يشمله دفء حجرة مغلقة .

وتعاودنى أفكارى تناوش عواطفى وأتساءل : ولكن هل كنت بقادرة بأعبائى هذه أن أقدم له ما تقدمه له زوجته ؟ إن لم تكن أمى تساعدنى وترعى لى صغيرتى لما كنت قادرة على فعل شىء ، إن أسلوب حياتى اهتماماتى وعملى تجعلنى واحدا صحيحا أقف بجوار محسن أو غيره ، شخصا مستقلا يملك كامل إرادته . . الزوجة لا تكون رقما صحيحا . . هى كسر بجوار الزوج ، وأدركت بعيدا عن عواطفى أنه ليس بكاف أن تكون بيننا الأرضية المشتركة وتكامل الفكر والاهتمام الواحد ، أن تكملنى له لن تغنيه عنها ولا عن

بناته . . احتياجاته الصغيرة قبل الكبيرة ، استقراره اليومى تنسجه له كما ينسج الثوب حتى يمكنه أن يفرغ لما بين يديه من درس وعمل ، وهنا أدركت كيف تتحول المرأة من خلال معايشتها للرجل كزوجة إلى عادة ، بل ضرورة تفوق الإدمان ، وعرفت أيضا أن ذلك وراء عدم قدرة الرجل على العيش بعد أن تموت وليفته . . إنه يسرع بالزواج ضاربا عرض الحائط بما يمكن أن يوصم به من عدم الوفاء مع أن المرأة هى التى وراء ذلك . . عودت الرجل ألا يستغنى عنها كزوجة فى الوقت الذى تستطيع فيه كأرملة أن تترهبن فى رعاية أولادها ، يساعدها على ذلك غريزة الأمومة لديها ، وكأنما ذكرتنى الأمومة بابنتيها كانتا جالستين بجوار أمهما فى تأدب وصمت شديدين بعد مناكفات ومشاغبات من الصغيرة ريم تلك الأثيرة لديه .

كانت بوجودها المكثف والمتغلغل فى أعماقه هى وبناتها يشكل سياجا يحوط بمحسن وينأى به بعيدا عن علاقتى به ، يمكن أن أكون صحبة فكر واهتمام مشترك لن يتعدى ومهما كانت حميمية هذا الاهتمام فهو سيظل أمرا فوقيا لن يمتد حتى الجذور ، لن يتأتى لى فى ظل هذه الأسرة أن أكون سكنا له أو مرفأ . . هو فى واحته وأسبابه قوية لأن يكون هناك تحت تلك الظلال . وأدركت متأخرة أن المقارنة المباشرة بيننا لم تكن فى جانبى كما توهمت أول الأمر . كما عرفت الآن لم كان ينأى عنى ولا يتجاوب معى ؟

وخفتت الأصوات التى كانت تشغى فى المكان فى أحاديث شتى ، دخل الأساتذة بعد أن انتهوا من تداولهم السرى فى الرسالة ومستواها ، تنبهت هى إليهم فى وجل وهم يأخذون أماكنهم . . كانت شاحبة الوجه قلقة فى مكانها تريد أن يصمت الجميع ليصدر القضاة حكمهم . . تلفتت للخلف عدة

مرات كأنها تريد أن تسكت المتحدثين فى خفوت بنظراتها ، كأنهم سيصدرون حكما عليها هى على ثمرة من ثمار جهودها ، لاشك أن أحاسيسها أن ما سيقوله هؤلاء الأساتذة يخصهما معا . بعدها سيكون زميلا لهم ، انفرجت أساريرها عندما لاحظت انفراجة أسارير وجه المشرف على الرسالة كانت بسمة خافتة تنم عن الرضا المخبوء فى أعماقه .

استبشرت بذلك ، كانت تتمتم بشفتيها كأنها تقرأ بعض سور القرآن ، ساد الصمت وتطالعت الآذان قبل العيون انتظارا للنطق بالحكم ، كنت واثقة من حصوله على الامتياز ، وكانت هى مازالت فى دوامة قلقها الخاص كأم تنتظر نتيجة امتحان وحيدها ، تبادلت معه إشارة بنظراتها لم أفهم مغزاها حتى رأيته يعيد وضع رباط عنقه ويريح طرف ياقة قميصه كيف حدث هذا ومتى ؟ . . لا أدرى !! انتهى من ذلك وألقى نظراته عليها كأنه يسألها هل رباط العنق عاد كما كان وان كل شىء على ما يرام ؟ فأرخت أجفانها فى حياء كأنها . . كأنها فى ليلة عرسها تماما !!

بوقار وقف المشرف على الرسالة وألقى مقدمة موجزة فى كلمات منتقاة ، وأعلن عن حصول محسن على الماجستير بامتياز ، ودوت القاعة بتصفيق حاد ، أنستنى تلك اللحظات المفعمة بالفرح أن أراها ؟ كنت أنظر إلى محسن وأنا أقف مع الجميع ونحن نصفق ، ظللت أصفق فى حماس حتى كف الجميع ، وفوجئت أننى الوحيدة التى ما زالت تصفق وحدها ، وأتتنى خبطات كفى منفردة إلى أذنى صافحه أساتذته واندفع أصدقاؤه يحيطونه بعبارات التهنئة ، ووقفت هى بعيدة خجلى تضع يدها على كتف صغيرتها ، وشق هو طريقه سريعا إليها ، صافحته بحرارة فأخذها فى تجويفة كتفه

اليمنى ، فبدت بجواره كتلميذة ، وبكل مظاهر الفخر والاعتزاز أخذ يقدمها لأساتذته الذين أحنوا رءوسهم وهم يشدون على يدها ، لم احتمل حفاوته بها ، فهممت بالاندفاع خارجة عندما اندفع زملائى نحوه وهم يصيحون باسمه . . الجمع يبتعد ومحسن غير مبال بى . . هو يعلم تماما أننى موجودة وعلى يقين أنه وإن لم يلق نظرة مباشرة على إلا أنه رآنى ، ويتجاهلنى هذا التجاهل الذى بدا لى متعمدا ، لم فعل ذلك؟ ألم يكن من اللائق منه أن يشكرنى على الأقل على مساعداتى له أنا ابنة الأستاذ الذى اعتمد على كتابه وعلى مراجعه فى رسالته ؟

ألم يكن ذلك غطاء كافيا أمام زوجته ؟ أأترك هكذا كالمنبوذة ؟ وكما تركنى أقاربى ونسوا إنسانة بالغة راشدة عاقلة فى الشقة وذهبوا . . . ومثلهم هكذا يتركنى محسن ؟! ماذا أعنى بالنسبة له ؟ لا شىء . . . هو الآن تحوطه دائرة الأضواء كما تحوطه دائرة الأجساد التى حوله والكلمات والبسمات ، وأنا . . أين أنا . . أين سحرى وشعرى وعطرى . . كل هذا تساقط كما تتساقط أوراق الشجر الجافة تنفضها ريح الخريف أنا التى تترك واقفة هكذا تستجدى لفتة اهتمام وتمر عليها نظرات المتسكعين فى الردهات ، باردة تصفنى متسائلة عن سبب وجودى فى هذا المحفل دون كاميراتى . . وجودى لا يأخذ أبعاده وكثافته إلا بها . . تواجدى فى أى مكان بدون الكاميرات تواجد لا ضرورة له ولا قيمة إذا كان حتما أن أحضر فعلى الكاميرات والمصورين والميكروفون أن تكون فى صحبتى ، أما بغير ذلك فلا هوية لى ولا حتى اسم .

سار محسن ولم يلتفت ، لم يتح لى حتى فرصة مصافحته ، هو يعلم أننى سأغرق فى بحر خجلى الخاص أنا التى تواجه عيون الكاميرا الفاضحة وعيون

الناس فى كل مكان ، ولكنى أمامه هنا وأمام نظرات زوجته وبناته لن أستطيع ، وهل كان يتوقع ألا أحضر ما دامت زوجته ستكون هنا . ما أكثر الأسباب التى يعرفها والتى تدفعنى دفعا للحضور ، أم ترانى عنده هو الآخر بلا هوية ما دمت بلا كاميرات ؟

لم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك ، وهربت من زملائى وانطلقت وحيدة أضرب فى الأرض على غير هدى . . كانت فترة دامية ، ما كنت أحسب أن علاقتى بمحسن يمكن أن تودى بى إلى ذلك الألم الذى أخذ يقطر داخلى كمادة كاوية تحرق نسيج إنسانيتى وتلهب الروح بالضنى والإهانة . . ما كان ينبغى أن أفعل بنفسى ما فعلت . . كان ينبغى على أن أعرف أننى عرض زائل فى حياته . . . ارتباط لفترة أو غاية مؤقتة ، مالى أنا أفرض نفسى عليه وعلى حياته . . حياته اختارها بنفسه ويعيشها كما يهوى هو ، وأى حق لى فى ذلك ؟ . . الحب حرية . . حرية المحب وحرية المحبوب معاً . .

ظللت أسير حتى فوجئت أننى بجوار كوبرى الجيزة ، وفوجئت بانفتاح السماء فوقى بنجومها المتلألئة . . كنت أسير وأنا مخفضة رأسى أرى أطراف حذائى وذيل ثوبى وأسفلت الطريق . . السماء هنا رائعة سنوات مضت لم أرها . . سمائى كانت أضواء الاستوديو بشموسه المحرقة لأجفانى . . صوت مجداف وسط النهر على البعد عند قاعدة الكوبرى . . شبحان لشاب وفتاة . . الشاب يجدف والفتاة بدا وجهها عندما انعكس ضوء سيارة على الضفة الشرقية للنهر . . لم أعد أستطيع أن أفكر كما كنت أفعل من قبل ، أنا أريده كله لا أريد نصف رجل أو نصف حبيب . . واحد صحيح . . أريد إنسانا هو محسن أثرثر معه . . أحكى همومى أفكارى ومشاريع قصائدى . . أن

أضع رأسى على صدره . . أنام أو أبكى أو حتى أموت ؟!

وحيدة أنا هنا أمام الليل والنهر . . كنت أعرف بالتجربة أن أسوأ ما فى الألم هو الوحدة التى تصاحبه ، وأنا الآن أجهل الكلمات التى يمكن أن تعبر عن آلامى العميقة . . ليس لى الخيار إلا بين التعاسة وعبث الحياة . . وأتساءل هل كان حبى لمحسن أيضا ضربا من ضروب عبث الحياة ؟ . . ذهب ولن يعود ولم يكن ذلك عبثا . . لقد غير فى أشياء إنه ليمتلك داخلى — وهو على البعد — ما غيره ، ستظل تلك الأشياء التى أحدثها داخلى ملكا له ومكتوبا عليها اسمه ورسمه .

سرت البرودة فى جسدى . . مشيت وأشرت لسيارة أجرة وعدت إلى البيت . . سلام يسربل أعماقى من الداخل ، هل هو سلام كاذب . . كنت أفكر فى ضرورة تجاوز علاقتى بمحسن . . له زوجة وأولاد ، ولا ينبغى أن أعود كما كنت طفلة أحقق ما أريده وأمتلك ما أشاء . . وتذكرت سلوى فأسرعت خطواتى على درج السلم . . ينبغى أن أعيش لسلوى . . أنا أعلم أن تجاوزى لعلاقتى بمحسن طريق وعر وملىء بالشجن ، ولكن العقل يقول بذلك ، ولأول مرة أشعر أننى هبطت إلى الأرض ولم أعد أحلق بخيالى كبالونة مليئة بالهيدروجين .

أمى أمام التليفزيون فى انتظار مسلسل الثامنة . . وسلوى نامت منذ قليل . . دخلت حجرتى . . رؤى صفحة النيل الساجية والظلال تملأ مخيلتى وقراراتى التى اتخذتها فى ساعة صفاء ذهنى ألقت بالسلام فى أعماقى . . ووجدتنى وأنا أتحرك بين المشجب ودولاب ملابسى أردد مقطعا من قصيدة لبودلير من كتاب أعطاه لى محسن !

تعقل قليلا أيها الألم[1]
واهدأ بين الجوانح ،
فها هو المساء
يهبط ملهوفا ،
يضم الكون إلى أحضانه الغامضة ،
حاملا بين أطيافه :
للبعض خدر السلام ،
والبعض أثقال الهموم .

وجلست على السرير أتأمل سقف الحجرة ، وفكرت . . ينبغى على أن أتخلص من كل ما يذكرنى به ، حتى ولو كان كتابا فى الشعر .

وسقطت عيناى عليه ، على المظروف . . خطاب . . خطاب لى من محسن كان ، المظروف موضوعا فى إهمال على التسريحة . . متى وصل ؟ وعاد القلب الطفل تتسارع دقاته من جديد . . وفتحت الظرف على عجل ، وخرجت وسألت والدتى فى نفس اللحظة ، قالت :

ــ أتى زميلك محسن وترك لك هذا المظروف .

أغلقت حجرتى على . . . . . .

عزيزتى مها

كيف أبدأ رسالتى إليك ؟ أرجو ألا تكون مفاجأة لك وخاصة أنك ستجدينها عقب عودتك من حضور مناقشة رسالتى . . صبرا . . لا تمزقى هذه الورقات التى مررت خصيصا لدارك وتركتها مع والدتك إنسى كل

(1) من كتاب « شىء من الشعر » ترجمة شفيق مقار

ما حدث هناك فى الجامعة ، فقد كان كل تصرف منى متعمدا كما تلاحظين من رسالتى التى أكتبها لك قبل أن نلتقى هناك .

أنت مالا تستطيعه زوجتى . وهى مالا تستطيعينه أنت . وكنت أريدك أن تدركى ذلك . كان مستحيلا أن أتحدث إليك فى هذه الحقيقة . وأنت أدرى الناس بأنه ليس كل الحقائق ما يقال . حتى لو كانت اليقين نفسه . . هناك حقائق تحس وأخرى تعاش وهذا هو الإيمان الحق كنت أشعر بك طول الوقت ، وكنت أراك لا فى تلك اللحظات فقط ، ولكن منذ دخولك لأول مرة بيننا . . كنت تحقق الأمل . . ولكن الأمل الذى يأتى مع الأفول . وهكذا أفقدك وأنا لم أكد أعثر عليك ! .

وقليلون هم أصدقائى الآن وكثيرة أنت بكل ما كان يصدر عنك وكنت أراه وأحسه ولا أبين ! فلو أبنت فهو الاعتراف والارتباط وأنا على ذلك غير قادر . . مستحيل . . الفصل ممكن . . ولكن تجاوزه روحا وقيمة فلا . . لا ياأيتها الغالية

افتحى شرفتك وقفى فيها ربما فى سبحات الأرواح فى الليل أراك . . افتحى نافذتك للريح لتسمعى همس صوتى فإنى أناديك على البعد . . . ربما توحدنا معا بالدوافع البعيدة فنحن نتبادل الفهم . . . نتبادل الحلم ونتبادل احساس كل منا بحيرة الآخر . والحياة تمضى والعمر يمضى بذلك التشبث بتلك اللحظات النادرة التى كنا نتحدث فيها . . . النزوع نحو الأجمل . . . والأكثر إنسانية . صديقتى تشبثى بالحياة كما سأتشبث بها . . . وينبغى أن نعيش حياتنا التى استحالت أن تجتمع تحت سقف واحد . . ينبغى أن نحاول دائما وسط تحدى العوائق والعقبات بل والمستحيلات صديقتى الشاعرة

ان ماكان بيننا أغنية . . . أغنية من الريح . من الريح التى تأتى بهمس الـرسـائـل التى لا تكتب . . التى تـأتى بـأصـداء الأغنيـات القـديمـة التى تعشقينها . . . ودعينى أعنى ذلك المدى من الجمال الذى كان بيننا ونحن نقرأ القصائد الصديقة .

وهكذا لم أعد قادرا على المجىء إلى بيتك الحرام وأحس أننى لن استطيع ذلك كلية . . . فلو استطعت ذلك مرة ما كان وداعى لك بهذا الخطاب .

صـديقتى . . . فلتتمددى بـرغم كل ذلـك واسمعى إلى ما يكفيـك من الاغنيات والموسيقى . . . . إلى همسك الداخلى . . . همس ذاتك الصافية تماما . . . . بعد أن أتخذت قرارا إنسانيا . . . هناك فى عمق أعماقك حيث يلتقى قرارك بجوهر شاعريتك . . اسمعى للموسيقى التى ستكون مصفاة تنقى كدرك ولتأخذك بعيدا عن عكارة السطح التى تأتى من التراب والغبار المنبعثـين من شوارع الهجـران . . والفراق . . والـوداع ، ربما تـأتى الأيام القادمة بشىء جميل بيننا سميه وفاء . . سميه صداقة . . سميه أخوة فى الحق . . فى الطريق . . طريق الخير والانسانية . . وهذا ليس بكثير ، فنحن من أرض العطاء والأسرار واليقين . أرجو لك وقتا أجمـل . . . . ولصغيرتـك قبلاتى .

محسن

كلماته قرأتها عشرات المرات . . . النوم لم يعد زائرى الوحيد فى المسـاء عدت لـلأقراص الهـادئة من جـديد . . . يقتـاتنى قلقى وتعتصرنى وحـدتى . . . رباه سحقـا لكل مـا لايمنح الإنسـان فرحـه الحقيقى . . . وتواصله الروحى مع نفسه . . . أين الخـلاص ؟ ومن ينصفنا اذا كنـا غير

قـادرين عـلى أن ننصف أنفسنـا !؟ اختلطت الـرؤ ى عـلى . . . فلم أر الكثير . . . ورغم ذلك السلام الاصطناعى الذى أجلبه لنفسى أو هو أصبح داخل نفسى ، إلا أننى أستكثر أن أعيه واقعا فأعب من الأقراص الهادئة . ! فرسالته كانت بلسما شفانى وأحيا فى جراحا أخرى ! وأنـا أزعم أن تجربتى كانت أكبر من احتمالى . . . ومن سنوات عمرى . . . فكتبت على نفسى بذلك أن أحتضن خنجرى فى عمق جراحى لتظل أفواها تصرخ . . . تنزف ألما . . . تصفع وجه المستحيل النسيان الذى كنت أظنه مستحيلا . فحين وجدت نفسى فى قلب الحقيقة . . . الحقيقة مهما كانت أعادت الى بصيرتى التى ضيعتها يوما بحجة الوحدة والفقد وشماتة المقربين . ضاقت عيونى زمنا عن رؤ ية اليقين بخصوبتى فأنا أستطيع مع طلعة كل شمس أن ألد السعادة والقوة . . وابنتى ستكون وابنة ابنتى . . . ضاقت عيونى فنسيت الرجل فى وطنى وهو ينكفىء على وجهه فى ظهره خنجر ودمه يسبقه فلا يرى إلا هذا الدم نفسه يكتب له ملحمة . . . يرسم له معبرا . . يفرش بالـورود له خنـدقا أو منزلا . . . فيوسد نفسه التراب وتسمعه يقول للدنيا دعونى وشأنى فلكم أنا مقرور تركت العنان لعقلى ووقفت اتفرج عليه بحجة حريتى واختيارى . أنا من رأوا فى وجهى العتيق نبوءة آخر الـرسالات الحق واليقـين . . . ضلت البشرية يوما وهى فى سكرات عراكها على أوثانها الهائلة من ذهب وفضة ، وياويل العقل الوثنى فى . . . الذى كان يريد بكل طفولية أن يبنى له صرحا على أطلال أكواخ الآخرين .

انتصرت على طفولتى . . . . وكم كان النصر مكلفا . . . وكم أصبـح العقـل مقيدا . . . فـالعمـل لا يـرحم . . . والكـاميـرات لا تنتـظر . . .

والميكروفون لايشبع . . لم يتوقف شيء . يقولون سيلونون التليفزيون نزوعا نحـو الأجمل . . . نـزوعا نحـو الأفضل والأكـثر إنسانيـة . . . لم يتـوقف شيء . . . وتمضى الأيـام وأعباء الـرغبـة فى الأحسن والأجمـل تستغـرقنى بكلياتى . . .

وفكرى فؤاد مخرجى اختار لابنته الوليدة اسم آمال رفض أن يسميها أمل واحدا فقط . . فآماله فى الأعمال الفنية لا حدود لها . . . وكلما تفوق فى عمله عاليا حتى طاول الأصل . . . فكر المؤلف وصدقه كلما زاده النصر إصرارا ومواصلة . . . مشغول الأمس واليـوم وبعد الغـد . . . وكما كـان سببا فى دخولى هذا العالم الساحر . . كان سببا مرة أخرى فى أن يغرقنىُ فى دوامته . حتى أنى كنت ألهث الخطى والنبض وأنا ألاحقه هنا وهناك . . . نفكر . . . نصور . . . نصطنع المشاهد . . ونصنع الأجواء . .

وأتذكر محسن فى خضم كل ما أفعل . . وأذهب فى ليلى أفتح شرفتى لعل الريح تحمل إلى همس صوته وهو ينادينى على البعد . . وكنت دوما أسمعه يقول لى :

ــ ألم أقـل لك . . . ستـأتى الأيام بـأشيـاء أخـرى جميلة نـزوعـا نحـو الأفضل . . . والأجمل . . و . . .

ذكـراه تفضى إلى قلبى حديثا لا يكف كحـديث الـريـح إلى الشـراع الوحيد .

تمت

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٨٠٩ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 7764 -4